أبو موسى الحريرى

قس و نبى

بحث فى نشأة الإسلام

الفهرس

مقدمة

المقصود هو البحث عن هوية القس ورقة بن نوفل ، و عن صلته بالنبى محمد بن عبد الله . و النتيجة هى إظهار ما أخفاه التاريخ عن حقيقة الإسلام و علاقته بالنصرانية . و لن تمر بالبال قط أى محاولة للتقارب بينهما . تلك المحاولة المستمرة التى ضلت الحقيقة و عطلت العقول . أنها محاولة فاشلة و ضالة ، مع كونها تدعو إلى الوئام و الألفة و السلام . هى فاشلة لأنها لم يتوفر لها النجاح يوما ، و هى ضالة لأنها تبنى على أسس غير صحيحة ، و هى مضلة لأن المقصود منها كل شئ سوى حقيقة الدين .

و سبب الفشل و الضلال جهل مطبق بالنصرانية و الإسلام . فلا هذه النصرانية التى يأخذ بها مسيحيو اليوم هى تلك التى كانت فى أيام القس و النبى ، و لا هذا الإسلام هو ذاك الذى دعا إليه كل من القس و النبى . و سبب الجهل يعود إلى أن فرقا شاسعا بين نصرانية القس و مسيحية اليوم ، و بين إسلام النبى و إسلام اليوم . هذا الفرق أضل الكثير من مؤرخى الأديان : فمؤرخو الإسلام حققوا فيما نقلت كتب السير و الأخبار دون أن يحققوا فى مقصود أهل السير و الأخبار ، و حققوا فيما هو عليه القرآن اليوم دون أن يحققوا فيما كان عليه بالأمس . و مؤرخو النصرانية تتبعوا النصرانية فى كل مكان ما عدا المكان الذى احتجزت فيه فى مكة و الحجاز . هذه النصرانية أهملوا تطوراتها و أحزابها ظنا بموتها و انقراضها .

و لئلا يكون كلامنا عاما على النصرانية و الإسلام فإننا سنحدده فى فترة من الزمن معينة ، و هى الفترة التى انقرضت فيها النصرانية فى مكة و نشأ الإسلام على انقراضا . و لئلا يدور البحث فى كل شئ فإننا سنقف عند القس و النبى و مقصدهما العظيم . و قد ننكر الآن مقصدهما العظيم هذا ، و لكننا لا نستطيع التنكر للحقيقة التاريخية فمثلا ! أن ما نسعى إليه اليوم من تقارب و نفشل ، قد سعى إليه كل من القس و النبى و نجح . و تم النجاح فى الإسلام بعدما ذابت النصرانية فيه . و لا تظنن ، للمرة الثانية ، أن نصرانية الأمس هى مسيحية اليوم . فتلك أسلمت و هذه لم يعرفها الإسلام قط . و نصرانية مكة ليست هى مسيحية أنطاكيا و روما و الإسكندرية . و مقصد القس و النبى كان تلك لا هذه . و تلك كهذه كانت مبعثرة فى شيع و أحزاب . و أراد القس و النبى جمع شتاتها فى دين واحد جديد .

و لكل من القس و النبى ، فى الدين الجديد ، دور : الأول أوحى و علم و درب و أرسل الدعائم ، و الثانى سمع و تعلم و درس و شيد البنيان . و فضل الأول على الثانى كفضل المربى على ربيبه . القس أستاذ علم فتى ذكى الفؤاد عرف اختياره و نجح ، و النبى تلميذ نجيب حفظ ما تعلم و أبدع . الأول نقل كلمة الله الأعجمية إلى لسان عربى مبين ، و الثانى بلغ كلمة العربية و تلاها على المؤمنين . كلاهما عمل لأجل الله ، و لأجل أن يكون للأميين رسول و كتاب . فكان للعرب إله يعبدون ، و رسول يتبعون ، و كتاب فيه يقرؤون .

بيد أن النبى استطاع أن يتفوق على القس و يستقل عنه ، شأنه كشأن أى تلميذ بارع يتخطى بذكائه قدرات معلمه . و شأن القس كشأن أى مرب حكيم يترك لربيبه حرية التصرف . لقد كان النبى ، لفرط ذكائه ، ينشد الحرية و يلتمس الاستقلال ، و كان القس ، لوفرة حكمته ، يختفى أمام عنفوان تلميذه بلباقة ، و يتوارى عن مسرح التاريخ الذى واراه وراء ستار حاجب . لقد أدى القس خدمته و ذهب ، و بقى النبى يجاهد و يناضل حتى حفظ له التاريخ أجمل ما حفظ . إلا أن النبى ، كما عرف أن يتدرب على الطقس بأمانة ، عرف أيضا كيف يتصرف بما تعلم بحكمة فجاءت رسالته مناسبة لظروف البيئة و المجتمع .

و لئن كان كلنا يعرف النبى و رسالته و سيرته ، فأن أكثرنا يجهل القس و هويته و دوره فى بنيان الدين الجديد . و سبب جهلنا ،

لابد ، مصيبة عمياء ، أرادها التاريخ كما أراد سواها فى هذه البقعة من الأرض . و المصيبة الكبرى تقع ، لا محالة ، على من يريد نبش مطامير هذا التاريخ المنكود ، لأن المتعصبين للحقائق المنزلة يصعب عليهم البحث فى حقيقة التاريخ ، و لن يدركوا أن باستطاعة الله استعمال البشر واسطة لإعلان كلمته . و مع هذا ، فأننا غير مجبرين على تصديق الحقائق حتى و لو كانت منزلة من لدن الله ، لأن حرية البحث عن كل شئ مكنون ، فهى أيضا منزلة من لدن الله .

كلن يؤمن بقدرة الله القديرة ، و لا أحد ينكر تصرف الله بملكه كما يشاء . و لكن أيضا لا أحد ينكر حرية الإنسان فى البحث عما يشاء . و لا أحد يسلم بأن الله حفظا لكرامته يسلب الإنسان كرامته . فالله يترك التاريخ يسير ، و يترك الإنسان يتدبر فى التاريخ أمره . لهذا ، إذا كانت الحقيقة وحيا من الله فليس كالإنسان واسطة يعلنها فى التاريخ باسم الله . و بالتالى ، لابد أن يكون الوحى اللاحق تذكرة للوحى السابق ، كما شهد الكتاب على نفسه : هذا ذكر (38 / 49) ، و هذه تذكرة (74 / 55) ، و كما شهد على نبيه : ذكر إنما أنت مذكر (88 / 2) و يوم يرتاب النبى من صحة ما يذكر به يقال له : " إن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك " (10 / 94) هذه القراءة ال من قبل تنبئ ، لا محالة ، عن واحد كان قبل النبى يقرأ عليه الكتاب و يهمس فى أذنه وحى الله من وراء الستار .

لقد عظم على المتدينين أن يروا النبى غير الله ، أما الحق فيقضى على بأن أعطى للتاريخ دوره ، و بأن أرى الله يستعمل البشر واسطة بعضهم لبعض للوصول أليه . و لن أكون بذلك أقل إيمان منهم . و غالبا ما يخفى التاريخ من على صفحاته دور البطل الأساسى ، و ذلك لكى يبقى له فاعلية السحر و رهبة السر . و بطل الإسلام هو القس ، و اسمه فى التاريخ " ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى " . عرف بانقطاعه عن الناس و بخلوته بربه ، فحفظ له التاريخ انقطاعه و خلوته . و أخشى فيما أخشى أن أقطع عليه خلوته هذه فأظهر ما ود التاريخ إخفاءه . لا بأس ، فان من يتحمل ظلمة غار حراء يتحمل نقل الكلام عليه ... جل ما أبغى ألا أترك النبى معلقا بين الأرض و السماء ، لا أصل له و لا أساس ، و لو اضطربت بذلك طمأنينة المتدينين .

****

لكى تتأكد لنا هذه النتيجة ، لابد لنا أن نقابل بين تعاليم القس و تعاليم النبى ، أي بين إنجيل القس و قرآن النبى . و المواضيع الواردة فى الكتابين تحدد مواقفنا من الرجلين . كتاب القس هو الإنجيل بحسب العبرانيين لاشك فى ذلك ، و كتاب النبى هو القرآن و فيه نظر أن القرآن ، كم وصل إلينا ، فى مصحف عثمان بن عفان ، يتحدى معطيات الواقع التاريخى ، و يقرأ حوادث التاريخ بالمقلوب . فالسور الأولى هى فى آخره ، و السور الأخيرة هى فى أوله . و بذلك قيست الحقيقة بطول السور و بقصرها . فلكى نقرأ كتاب النبى قراءة صحيحة علينا أن نقرأ مصحف عثمان بداء من آخره .

ثم أن المواضيع التى يتناولها قرأن النبى تختلف اختلافا جوهريا عن المواضيع التى يعالجها مصحف عثمان . فكلام مسلمى قرآن النبى على النصارى ، مثلا ، غير كلام مسلمى مصحف عثمان . أولئك أهل مودة و إحسان ، و هؤلاء مشركون يجب قتالهم . و قصة عيسى المسيح و أمه فى كتاب النبى تختلف فى جوهرها عما هى فى مصحف عثمان ... و غير ذلك . فى هذه القراءة الجديدة للقرآن قد تتبدل معنا مفاهيم كثيرة شهد لها المتدينون شهادة زور طيلة ألف و أربعمائة سنة ، و شهد الباحثون المعنيون بأمور الإسلام شهادة خطأ تنال من حقيقة التاريخ . و قصدهم فى ذلك حفظهم لأيمان الملايين المذهولين بالوحى ذهولا ، و المطمئنين إلى الله كأنه فى متناول كل عقل مرتاح .

و سبب مصيبتنا هذه أربعة : جهلنا بالقس و كتابه ، و اعتمادنا على مصحف عثمان على حساب قرآن النبى ، و محاولتنا الفاشلة أبدا فى الوفاق بين المسيحية و الإسلام ، و أخيرا ارتياحنا التام إلى الحقيقة كل الحقيقة كأنها وحى من عند الله لا مجال للبحث فيها .

جدول بأرقام و أسماء السور القرآنية

الرقم	السورة	الرقم	السورة	الرقم	السورة	الرقم	السورة
1	الفاتحة	33	الأحزاب	65	الطلاق	97	القدر
2	البقرة	34	سبأ	66	التحريم	98	البيئة
3	آل عمران	35	فاطر	67	الملك	99	الزلزلة ، الزلزال
4	النساء	36	يس	68	القلم	100	العاديات
5	المائدة	37	الصافات	69	إلحاق	101	القارعة
6	الأنعام	38	ص	70	المعارج	102	التكاثر
7	الأعراف	39	الزمر	71	نوح	103	العصر
8	الأنفال	40	غافر ، المؤمن	72	الجن	104	الهمزة
9	التوبة- البراءة	41	فصلت ، حم السجدة	73	المزمل	105	الفيل
10	يونس	42	الشورى	74	المدثر	106	قريش
11	هود	43	الزخرف	75	القيامة	107	الماعون
12	يوسف	44	الدخان	76	الدهر ، الإنسان	108	الكوثر
13	الرعد	45	الجاثية	77	المرسلات	109	الكافرون
14	إبراهيم	46	الإحقاق	78	النبأ	110	النصر
15	الحجر	47	محمد	79	النازعات	111	المد ، اللهب
16	النحل	48	الفتح	80	عبس	112	الإخلاص
17	الإسراء	49	الحجرات	81	التكوير	113	الفلق
18	الكهف	50	ق	82	الانفطار	114	الناس
19	مريم	51	الذاريات	83	المطففين		
20	طه	52	الطور	84	الانشقاق		
21	الأنبياء	53	النجم	85	البروج		
22	الحج	54	القمر	86	الطارق		
23	المؤمنون	55	الرحمن	87	العلى		
24	النور	56	الواقعة	88	الغاشية		
25	الفرقان	57	الحديد	89	الفجر		
26	الشعراء	58	المجادلة	90	البلد		
27	النمل	59	الحشر	91	الشمس		
28	القصص	60	الممتحنة	92	الليل		
29	العنكبوت	61	الصف	93	الضحى		
30	الروم	62	الجمعة	94	الشرح ، الانشراح		
31	لقمان	63	المنافقون	95	التين		
32	السجدة ، ألم السجدة	64	التغابن	96	العلق		

الفصل الأول

هوية القس ورقة و حياته

أولا : نسب القس ورقة

ثانيا : نصرانية القس ورقة

ثالثا : أبيونية القس ورقة

رابعا : علم القس ورقة

خامسا : مهمة القس ورقة

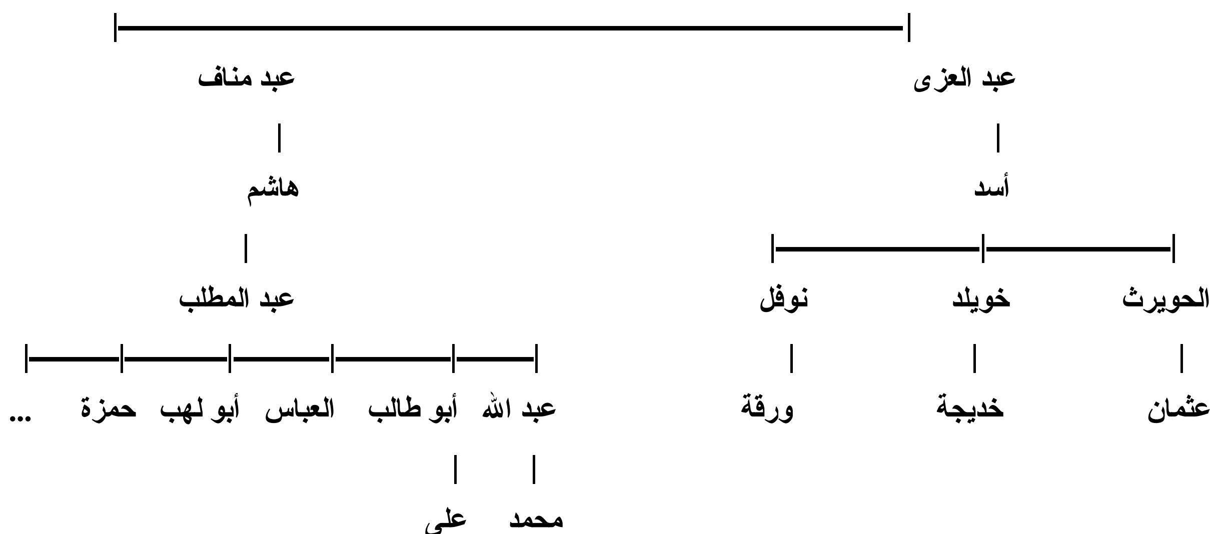
سادسا : القس ورقة رئيس النصارى

سابعا : موت القس ورقة

أولا : نسب القس ورقة

هو القس ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، ابن عم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، زوجة النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى .

فيكون قصى الجد الثالث لورقة و خديجة ، و الجد الرابع لمحمد . و الثلاثة يلتقون فى قصى نسبا و جاها و إيمانا و دينا و مقاما . و الثلاثة من قريش سدنة الكعبة ، و من سكان مكة ، و أصحاب دار الندوة .



عرف بن قصى انه تولى أمر الكعبة بعد طرده قبيلتى بنى بكر و خزاعة من مكة ، و انه جمع شتات القبائل المبعثرة فى شعاب مكة و بطحها تحت زعامته ، و أطلق على هذا التجمع اسم قريش و قريش هو التجمع من قول ابن اسحق " إنما سميت قريش قريشا لتجمعها بعد تفرقها " و يقال للتجمع التقرش . (1) و لم تزوج قصى من ممبى بنت خليل الخزاعى ، و كان له أولاد و مال ، عظم شرفه و جمع قومه و تملك عليهم . فكانت إليه ستة أمور : الحجابة و القيادة و السقاية و الرفادة و الندوة و اللواء ، توزعها أبناؤه الأربعة من بعده بالتساوى (2) ، و هم عبد الدار و عبد العزى و عبد قصى و عبد مناف .

و نحن نعرف الكثير عن فرع عبد مناف من كتب السير و الأخبار ، و لكننا لا نعرف شيئا يذكر عن فرع عبد العزى . و قد يكون ذلك إهمالا مقصودا أو لامبالاة من قبل أصحاب السير . و سبب ذلك أنه لا علاقة قريبة بين ما تهتم به السيرة النبوية من أخبار عن النبى و بين ما لا صلة له بهذه السيرة من أبناء قصى و أحفاده الآخرين . و هذا هو همنا فى كتابة هذا البحث عن القس ورقة و فى السعى وراء هوية هذا الفرع المنكود الحظ الذى لم يحظ بما يستحق من عناية .

و قد يكون ما كتبه أهل السيرة النبوية عن فرع عبد مناف و أحفاده غير موافق للحقيقة ، لأن هم الذين كتبوا عنه كان لأجل غاية معروفة و مقصودة سلفا ، و هو أن يدلوا على جدة الرسالة المحمدية و إظهار ما سواها ظلمة قاتمة ووضعها فى خانة الجاهلية . كما أن الإهمال الذى حدث بالنسبة إلى فرع عبد عزى ربما كان هو الآخر مقصود إذ كان من المفروض على أهل الأخبار أن يعنوا بالتاريخ فى جميع جوانبه ، و أن يولوا الأحفاد عبد العزى اهتمامهم ، فى حين أنهم رجعوا بسلالة النبى إلى إسماعيل و إبراهيم و آدم ، و دققوا فى أخبار كل جد من أجداد محمد .

---

(1) سيرة ابن هشام (1 / 87)
(2) سيرة ابن هشام (1 / 115)
ملاحظة عامة :الرقم الأول يشير إلى السورة و الثانى إلى الآية أو الآيات لأنه لا يذكر اسم السورة بل يشير إلى رقمها فقط .
راجع الجدول ص (7) للعلم .

و كما أن كتاب السير و الأخبار راحوا فى كتابة سيرة فرع عبد مناف انطلاقا من النبى محمد ، فنحن أيضا سنعمد فى كتابة سيرة

فرع عبد العزى انطلاقا من القس ورقة . و القليل المذكور عن القس لا يسمح لنا بوافر من المادة لارواء غليل المتبحرين . عكس ذلك عما هو المعروف عن النبى . و إذا كان حظ أجداد النبى أنهم عرفوا بالنسبة إليه و بفضله ، فلن يقل حظ القس فيما عرف عنه بالنسبة إلى النبى و بفضله أيضا . لذلك سيتضح لنا نسب القس بصلته بالنبى ، و ستتضح لنا رسالة النبى لصلته بالقس .

فالمهم إذن أن القس ورقة و خديجة و النبى محمد ينتمون إلى قصى الجد الأول لقبيلة قريش ، الذى ، بمساعدة قبيلة بنى عذرة النصرانية ، أخرج خزاعة من مكة و قضى عليها (3) و فى رواية أخرى أن قيصر الروم أعان قصيا على خزاعة (4) و ذلك عن طريق الغساسنة حلفاء الروم . و قد تكون قبيلة بنى عذرة النصرانية ، التى عاشت على مقربة من حدود بلاد الشام ، هى التى توسطت فيما بين قصى و الروم ، و قد كانت خاضعة لنفوذهم (5) و هى الإشارة الأولى لعلاقة قبيلة قريش ، منذ نشأتها ، على يد قصى مؤسسها ، بالروم و القبائل النصرانية . و لابد أن يكون لهذه العلاقة السياسية من أثر فى الدين و الإيمان . و يشهد على ذلك هدم قصى للأصنام التى أدخلتها قبيلة خزاعة على يد ملكها " عمرو بن لحى " الذى غير دين التوحيد (6) .

و المعروف عن قصى أنه كان أول من بنى الكعبة ، بعد بناء تبع اليمنى ، و سقفها بالخشب ، و أول من أظهر الحجر الأسود ، و كانت قبيلة أياد دفنته فى جبال مكة ، و أول من بنى المساكن فى مكة ، و نقض الخيام ، و أول من نظم شئون المدينة ...

و بهذا النسب إلى قصى كان القس و النبى يتشوفان .

---

(3) طبقات ابن سعد (1 / 66) ، نهاية العرب (16 / 20) ، تاريخ الطبرى (2 / 55)

(4) ابن قتيبة ، المعارف 640

(5) البلاذرى أنساب (1 / 47) ، الكامل فى التاريخ لابن الأثير (2 / 7) ، الأزرق تاريخ مكة ، (1 / 55)

(6) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (4 / 14)

ثانيا : نصرانية القس ورقة

لقد قيل عن القس ورقة أنه كان على دين موسى ، ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة و السلام ، أى كان يهوديا ثم صار نصرانيا

(7) هذا القول يعنى أن ورقة كان يأخذ بتعاليم موسى و عيسى معا ، أى كان يقيم التوارة و الإنجيل معا ، بحسب تحديد القرآن : يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة و الإنجيل (5 / 68) ، و يعنى ثانيا أن ورقة كان مقتصدا فى عقيدته ، لا يغلو فى نظرته إلى المسيح كوفد نجران المسيحى القائل بألوهية المسيح ، و لا يقتصر على موسى كاليهود الذين ينكرون على عيسى نبوته . فورقة إذن يكون من اليهود المتنصرين ، أى من اليهود الذين تنصروا ، و اعتقدوا فى المسيح نبيا أتى يكمل ناموس موسى دون أن يكون إلها أو أبنا لله ، و يعنى أخيرا أن بعضا من العرب قد استجاب لبشارة المبشرين من النصارى و لم تبق النصرانية وقفا على الغرباء عنهم .

و شهد التاريخ الإسلامى على تنصر أحياء كثيرة من العرب ، و دل خاصة على دخول النصرانية بعض قبائل مكة و الحجاز ، و أشار بوضوح إلى اعتناق بعض بطون قريش لها ، و أخصها فرع عبد العزى بن قصى . قال اليعقوبى فى تاريخه : " و أما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بنى أسد" ... (8) و أشار أيضا إلى تدين قبيلة قريش كلها فى قوله : " و كانت العرب فى أديانهم على صنفين : الحمس و الحلة فأما الحمس فقريش كله " (9) و أوضح معنى هذا التدين قائلا : " كانت قريش و عام ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم ، يحجون البيت ، و يقيمون المناسك و يقرون الضيف ، و يعظمون الأشهر الحرم ، و ينكرون الفواحش ، و التقاطع ، و التظالم ، و يعاقبون على الجرائم ، فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت " (10)

و يؤكد الأزرقى فى آثار مكة نصرانية قريش و تدينها فى قوله : و جعلوا (قريش) فى دعائمها (الكعبة) صور الأنبياء و صور الشجر و صور الملائكة . فكان فيها صورة إبراهيم الخليل شيخ يستقيم بالازلام ، و صورة عيسى بن مريم أمه ، و صور الملائكة , فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبل الماء و أمر بطمس تلك الصور . فطمست و قال : ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم و أمه عليهما السلام ، و قال : امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدى . فرفع يديه عن صورة عيسى بن مريم و أمه . (11)

أما الكلام على تنصر الكثير من أحياء العرب و قبائلهم فيشهد له المؤرخون و أهل السير عامة . يقول ابن قتيبة : أن النصرانية كانت فى ربيعة و غسان و بعض قضاعة (12) و يقول اليعقوبى فى تنصر تميم و ربيعة و بنى تغلب و طئ و سنحج و بهراء و سليخ و تنوخ و لخم (13) و يشهد الجاحظ بقوله : كانت النصرانية قد وجدت سبيلها بين تغلب و شيبان و عبد القيس و قضاعة و سليخ و العباد و تنوخ و لخم و عاملة و جذام و كثير بن بلحارث بن كعب ... (14)

هذه الشهادات و غيرها فى كتب السير و الأخبار تدل على وجود نصرانى و اسع فى مكة و الحجاز و سائر أنحاء الجزيرة العربية و بلاد الشام ، و تدل على اعتناق بعض العرب للنصرانية ، و على كثرة معتنقيها . و هو ما يبرر وجود قس عليها يدير شؤونها الروحية و يرعى أمورها الزمنية و الاجتماعية ، و هو القس ورقة بن نوفل قس مكة و قبيلة قريش .

---

(7) سيرة ابن هشام (1 / 203)
(8) تاريخ اليعقوبى (1 / 257)
(9) نفس المرجع (1 / 256)
(10) تاريخ اليعقوبى (1 / 254)
(11) أخبار مكة و ما جاء فيها من الآثار للازرقى (1 / 165)
(12) المعارف لابن قتيبة الدينورى ص (621)
(13) تاريخ اليعقوبى (1 / 257)
(14) كتاب الحيوان للجاحظ (7 / 216)

و الجدير بالذكر أن كتب السير و الأخبار شهدت على نصرانية فرع عبد العزى بن قصى و لاذت بالصمت حيال فرع عبد مناف . و لا ندرى إذا كان الصمت جهلا أم تنكرا . و كلا الاثنين لا يجوز :

فالجهل مردود على أصحابه لأن معرفتهم تعدت إلى فرع لا أهمية له بالنسبة إلى سيرة النبى و هو فرع عبد العزى ، و التنكر هو طعنة فى حقيقة التاريخ . فالنصرانية غزت فرع عبد مناف كما غزت فرع عبد العزى من قريش . و يثبت ذلك تأرجح كتاب السي بين الوثنية و الشرك . و يميل السعودى إلى الرجيحة الأولى (15) ، كما سنظهر ذلك .

أما نصرانية القس ورقة فكانت تقوم على ما كانت تقوم عليه النصرانية فى تاريخ الكنيسة . قبل عن ذلك أن القس ورقة . كان أحد من أعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية ، و طلب الدين ، و قرأ الكتب ، و امتنع عن أكل ذبائح الأوثان (16) و قيل أيضا أنه كان رابع أربعة تركوا الأوثان ، و الميتة ، و ما يذبح للأوثان (17) و هم " عبيد الله بن جحش بن أميمة بين عبد المطلب عمة النبى و قد مات نصرانيا فى أرض الحبشة تاركا امرأته أم حبيبة التى تزوجها الرسول من بعده (18) و عثمان بن الحويرث ، ابن عم ورقة بن نوفل و خديجة بنت خويلد زوجة محمد ، تنصر بأرض الروم و حسنت منزلته عند القيصر ، و كان يقال له البطريق ، لا عقب له ، مات بالشام مسموما (19) ، و زيد بن عمرو بن نفيل الذى قال فيه النبى : أنه يبعث أمة وحده (20) ، و هو ابن أخى الخطاب ، اشتهر عنه أنه نهى عن قتل المؤودة (21)

هؤلاء الأربعة من فرعى عبد العزى و عبد مناف على السواء ، اشتهروا بتنصرهم وفق الواجبات و الفروض النصرانية المتبعة فى الكنيسة ، و المعروفة فى مقررات مجمع أورشليم الرسولى المعقود سنة 49 ميلادية ، و هى تقوم على الامتناع عن نجاسات الأصنام ، و الفحشاء ، و المخنوق ، و الدم (22) ، كما تقوم على الأخذ بناموس موسى و إنجيل عيسى على السواء ، و على الختان و المعمودية معا ...

إلا أن نصرانية القس ورقة و ندمائه الثلاثة الآخرين تختلف على ما يبدو ، عن نصرانية مقررات مجمع أورشليم المنسوبة إلى يعقوب الرسول . فنصرانية يعقوب تؤمن بألوهية المسيح و ببنوته لله ، و تحكم بأحكام الإنجيل و تعاليمه ، و تعتقد بصلب عيسى و قيامته من بين الأموات ، فى حين أن نصرانية القس ورقة و زملائه تنكر ألوهية المسيح و بنوته لله إنكارا مباشرا ، و ترفض قيامته و صلبه رفضا قاطعا ، و ذلك ، على ما يظهر ، تبعا لشيعة فى النصرانية معينة أنتمى إليها القس و معظم قبيلة قريش و اعتنقوها و أقاموا فرائضها و موجباتها ، و هى الشيعة الأبيونية .

---

(15) مروج الذهب للسعودى (2 / 108 _ 109)
(16) الأصفهانى فى الأغانى (3 / 113)
(17) طبقات ابن سعد (1 / 162) ، السيرة المكية (1 / 110)
(18) سيرة ابن هشام (1 / 206)
(19) نفس المرجع (1 / 206) فى إشارة حاشية (1)
(20) سيرة ابن هشام (1 / 208)
(21) نفس المرجع (1 / 206 - 207)
(22) سفر أعمال الرسل (15 / 20 و 29) ، (21 / 25)

ثالثا : أبيونية القس ورقة

عرف عن النصارى من بنى إسرائيل الضاربين فى مكة و الحجاز انقسامهم فيما بينهم إلى شيع و فرق و أحزاب (23) و أشار القرآن العربى بوضوح إلى هذه الخلافات ، و قال : أختلف الأحزاب من بينهم (24) ، أى النصارى بحسب تفسير الجلالين للآية المذكورة و قال

أيضا : و من الأحزاب من ينكر بعضه (13 / 36) ، و يصف أحوال كل منهم بأن كل حزب بما لديهم فرحون (25) و لا يعجب أتباع النبى من كثرة الأحزاب هذه لأنهم حذروا منها مسبقا و أعلموا بوجودها : و لما رأى المؤمنون (من أتباع محمد) الأحزاب (عند النصارى) ، قالوا : هذا ما وعدنا الله و رسوله (23 / 22) .

و يخشى النبى فيما يخشى أن يكون أنتمى إلى حزب منها ، أو أن يكون ساهم فى توسيع رقعة الخلاف بينها ، فيقول : أنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل (20 / 94) كما يرفض أن يفرق بين الأحزاب ، بل يريد لها السلم ، و يبغى توحيدها : لا نفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون (26) . و يقول عن أتباعه بأنهم هم أيضا : آمنوا بالله و رسله ، و لم يفرقوا بين أحد منهم (4 / 152) . و فى رأيه أ، كل حزب آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله ، لا نفرق بين أحد من رسله (2 / 285) .

و تضاف إلى شهادة القرآن العربى هذه شهادة التاريخ الكنسى . فهى تشير إلى أسماء هذه الأحزاب و إلى تعاليمها . و ما يؤكد لنا الوفاق بين الشهادتين وحدة التعاليم التى تأخذ بها الأحزاب فى كلا المصدرين . و تقتصر على ذكر بعضها كالأبيونية و القيرنثية و ألكسائية لشهرتها و معرفة تعاليمها :

1 – الأبيونية : و هى فئة من اليهود المتنصرين ، التحقوا بالمسيح و رأوا فيه نبيا عظيما من الأنبياء . لا يعترفون بألوهيته و لا بنوته لله ، بل يقولون بأنه رجل كسائر الرجال جاءه الوحى بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان ، أو بالحرى أن المسيح المبدأ الأزلى دخل يسوع يوم عماده و فارقه يوم استشهاده . تقوم رسالته على التعليم و التبشير دون الفداء و الخلاص (27) . يقبل الأبيونيون إنجيل متى وحده ، و يسمونه " الإنجيل بحسب العبرانيين " ، و هو نفسه إنجيل متى الأرامى و لكنه ناقص و محرف و مزيف ، كما يشهد أبيفانوس (28) . أما فروضهم فتركز على الاغتسال الدائم بالماء للوضوء و التطهير ، و على تحريم الذبائح . و يشددون على أعمال البر و الاهتمام باليتامى و العناية بالفقراء و المساكين و أبناء السبيل ، و يوصون بإعالة المحتاجين و إطعام الجياع و إقراء الضيوف و الغرباء ... و اسمهم يدل على ذلك ، فهو يشتق من قول المسيح : " طوبى للفقراء " ، و بلغتهم العبرانية : " طوبى للأبيونيين " ذكرهم أيريناوس فى كتابه " ضد البدع " (29) ، و أوريجانوس فى كتابه " ضد سلسوس " (30) ، و أبيفانوس فى " الشامل فى الهرطقات " (31) . دخل فى شيعتهم معظم رهبان قمران بعد خراب هيكل أورشليم ، فهاجروا إلى الحجاز و أنتمى إليهم بعض القبائل العربية .

(23) القرآن : (30 / 32) ، (4 / 150 و 152) ، (3 / 103 و 105) ، (42 / 13) ، (9 / 122) ، (2 / 75 و 100 و 101 و 146) ، (3 / 78) و غيرها.

(24) القرآن : (19 / 37) ، (43 / 65)

(25) القرآن : (23 / 53) ، (30 / 32)

(26) (19 / 47) ، (43 / 65)

(27) J. Danielou , Theologie du Judeo – Christianisme, 76

(28) Epiphane , panarion XXIX ,3 et 13

(29) St. Irenee , Contre Les Heresies I, 26 , 12

(30) Origene , Contre Cels II,1

(31) Epiphane , Panarion XXIX- XXX ...

أبيونية ورقة

2 – القيرنثية : نسبة إلى مؤسسها " قيرنث " " Cerinthe " تتميز بقولها أن ملكوت المسيح السماوى هو على مثال الأرضى ، و أن دور المسيح يقوم على تحرير شعبه من الحكم الرومانى و الأجنبى ، و مهمته هى سياسية و اجتماعية . و تقول بأن الجنة السماوية من متاع الجسد و شهواته . يذكر أورسابيوس قرنث فى قوله

: " بما أنه نفسه يحب جسده ، و كان شهوانيا ن فهو يحلم أن هذا الملكوت يقوم على الأشياء التى يشتهيها ، أى الطعام و الشراب و لذة الجسد " (32) .

3 ـ ألكسائية : نسبة إلى " ألكسائى " " Elxai " تذهب فى الغنوص إلى أبعد حد . و تسمى أنصارها " أهل العلم" و تعلم فى المسيح أنه بشر كسائر البشر (33) ، و أن المسيح فارق قبل استشهاده ، و أن الروح القدس تارة هو " أم "المسيح فهو بالتالى مؤنث ، و طورا هو الملاك جبرائيل فهو مذكر . و يدعى " ألكسائى " بأن ملاكا دفع إليه بكتاب من السماء كان محفوظا فى لوح مقدس نزله عليه جبرائيل (34) ، و علمه أسرار الحكمة و الغيب .

هذه هى شهادات التاريخ الكنسى على بعض الشيع النصرانية ، و هى على ما يظهر ، تتفق مع شهادات القرآن العربى ، أقله فى الأمور الأساسية مثل إنكار ألوهية المسيح ، و اعتباره نبيا عظيما ، و الشبه الواقع على صلبه ، و مثل إقامة أحكام التوارة و الإنجيل ، والاهتمام بالمساكين ، ووصف الجنة السماوية ... و غيرها . و يكفى منها شهادة وجودها فى مكة و تعرف القرآن العربى عليها . إلا أن الجانب الأبيونى كان واضحا أكثر من سواه فى حياة القس ورقة و ممارساته الروحية و تحنثه فى حراء . إن ما ظهر من أبيونية القس ورقة فى حياته و ممارساته الروحية و تعاليمه يدل على انتمائه الأكيد إليها . فعدا عن تعاليمه التى نرى لها أثرا واضحا فى القرآن عند كلامنا على ذلك فى الفصل الأخير ، نتوقف الآن على ما عرف عنه فى تحنثه فى غار حراء مع عبد المطلب و عثمان بن الحويرث و عبيد الله بن جحش و أبى أمية بن المغيرة و غيرهم (35) . و التحنث هو التحنف و التبرر و التعبد الليالى الطوال و إقامة أعمال البر و الإحسان . (36)

و ذلك يقوم على الصيام شهرا كاملا فى السنة ، و على إطعام الجياع و الرأفة بالمساكين ، و على التخلى عن الناس و الانقطاع إلى الله و التفكر فيه (37) . و يقوم أيضا على اعتزال عبادة الأوثان ، و الامتناع عن أكل الذبائح المقربة إليهم ، و قراءة الكتب المقدسة ، و التأمل فى قصصها و أخبارها (38) ، و الأخذ بالختان و الحج إلى البيت و الغسل من الجناية و تحريم الخمرة و ما أهل لغير الله (39) .

بهذه الصفات وصف القس ورقة و من ذكرته كتب السير و الأخبار مثل أبى بكر الصديق و رباب البراء و أسعد بن كريب الحميرى و قس ابن ساعدة الأيادى و أبى قبيس بن صرمة و غيرهم (40) . و لم تكن هذه العبادات بعيدة عن النبى ، فهو أيضا ، كالقس ورقة ، و معه ، تحنثه فى غار حراء ، و مارس هذه الواجبات ، كما ترى فيما بعد .

Eusebe , Histoire Ecclesiastique 3 (32)
Hippolyte de Romme , I x ,14000 (33)
J. Danielou , Theol . de Judeo - Christianisme 68 (34)
(35) السيرة الحلبية (1 / 260)
(36) سيرة ابن هشام (1 / 218 ، 222)
(37) الأصفهانى فى الأغانى (3 / 113)
(38) طبقات ابن سعد (1 / 85)
(39) لسان العرب (10 / 402) ، الكشاف (1 / 178 ، 236 ، 407) ، الطبرسى (1 / 467) ، (3 / 109) تفسير الرازى (13 / 57) ، (14 / 10) ، (17 / 171) ،تفسير الطبرى (3 / 104) ... تاج العروس (6 / 77) لفظة " حنف " ، القربى (4 / 109) ، القاموس (3 / 130) ، ابن خلدون (2 / 707) ... و غيرهم .
(40) السعودى فى مروج الذهب (1 / 77) .

رابعا : علم القس ورقة

قيل فى القس ورقة أنه كان نصرانيا قد تتبع الكتب ، و علم من علم الناس (41) . و قيل فيه أيضا : أنه استحكم فى النصرانية ، و اتبع

الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب (42) . و قيل " كان قد تنصر و اتبع الكتب " (43) ... هذه الأقوال فى القس ورقة تقطع فى علمه و فى تتبعه المتواصل لدرس الكتاب و فى وعيه هذا العلم . فهو يأخذ من أهل الكتاب أى من التوراة و الإنجيل ، و من علماء النصارى الموصوفين فى القرآن ب " الراسخين فى العلم " (44) ، و " بأولى العلم " (45) ، و ب " الذين جاءهم العلم " (46) ، و ب " من عنده علم الكتاب " (47) ، و ب " الذين أتوا العلم " (48) .

و للعلم فى القرآن ، كما لأهله مكان مرموق ، كالمكان الذى يحتله عند أهل الغنوص و المعرفة فى الشيعة " ألكسائية " من النصارى . هؤلاء تناط بهم معرفة الحق . و لكثرة ما يعرفون عن الحق تراهم خاشعين متعبدين يفيض الدمع من عيونهم : " ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق " (5 / 83) . و يقوم عملهم على معرفة الكتاب بتمامه و كماله ، فهم " الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم " (49) . و ما أصحاب الأعراف آلا رجال يعرفون الناس بوجوههم و يدركون عنهم كل خفى مكنون : " على الأعراف رجال يعرفون كلا بسيما هم " (7 / 46) .

هؤلاء العالمون الله إليه : " يرفع الله الذين آمنوا و الذين أوتوا العلم درجات " (58 / 11) . و هم يفرحون بما لديهم من العلم : " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم " (40 / 83) ، لأنهم يرون أن كل ما أنزل من الله حق : " و يرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق " (34 / 6) . و هم يلبثون فى كتاب الله متأملين فيه دون سواء من الكتب : " و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله "(30 / 56) ، لأن كتاب الله هو لأصحاب العلم آيات بينات : " بل هو آيات بينات فى صدور الذين أتوا العلم " (29 / 49) .

أصحاب العلم هؤلاء يحق لهم أن يشهدوا ، مع الله و ملائكته ، على صحة الإسلام و على رسالة محمد : " شهد الله .... و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط ... أن الدين عند الله الإسلام " (3 / 18 - 19) . و تكفى شهادتهم : " قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم و من عنده علم الكتاب " (13 / 43) . أهل العلم هم فى القرآن النصارى المسلمون قبل المسلمين : " و أوتينا العلم من قبلها و كنا مسلمين " (27 / 42) ، الذين آمنوا بالقرآن قبل سواهم : " الراسخين فى العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا " (3 / 7) ، و " الراسخون فى العلم منهم و المؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك " (4 / 162) .

صفة العلم هذه ليست غريبة عن القسيسين و الرهبان : فخطب القس ابن ساعدة شهيرة فى كتب الأدب ، و شهرة الراهب بحيرا ، الذى تعرف عليه النبى فى أسفاره إلى الشام ، بعيدة الأثر فى نفوس أهل قريش ، و قد قيل عنه : " أنتهى إليه علم النصرانية " (50) ، و الراهب " عداس النينوى " كان يرقى محمدا بما يعرفه من الكتب (51) ، و راهب آخر من الشام يدعى عيصا " أتاه الله علما كثيرا " (52) ، و آخر فى عكاظ كان على علم فى الطب ، ذهب إليه محمد برفقة جده عبد المطلب يطلب منه شفاء عينيه من رمد أصابهما (53) ... و غيرهم .

---

(41) سيرة أبن هشام (1 / 175)
(42) نفس المرجع (1/)
(43) نفس المرجع (1 / 145) ، السيرة الحلبية (1 / 263)
(44) القرآن (4 / 162) ، (3 / 7)
(45) القرآن (3 / 18)
(46) القرآن (3 / 19) ، (10 / 93)
(47) القرآن (13 / 43) ، (27 / 40)
(48) القرآن (58 / 101) ، (47 / 16) ، (34 / 6) ، (30 / 56) ، (29 / 49) ، (28 / 80) ، (27 / 42) ، (22 / 54) ، (17 / 107) ، (16 / 27) ، (3 / 19) ...
(49) القرآن (2 / 146) ، (6 / 20)
(50) سيرة ابن هشام (1 / 165) ، السيرة الحلبية (1 / 130)
(51) السيرة الحلبية (1 / 267) ، السيرة المكية (1 / 183)
(52) السيرة الحبية (1 / 78)
(53) نفس المرجع (1 / 135)

و لا يستبعد ، بل يستغرب حقا ، آلا يكون القس ورقة واحدا من هؤلاء الرهبان المتبحرين فى العلم ، و هو الذى قيل عنه بأنه كان

يتتبع الكتب و يتعلم من أهل العلم و يأخذ ممن عنده علم الكتب .

فى هذا الإطار من العلم و المعرفة يدخل القس ورقة كأحد الغنوصين ألكسائيين المتبحرين فى الكتب ، حتى غدا عالما بها ، عارفا بقصصها ، مفسرا لها ، شارحا بيناتها ، مبشرا بتعاليمها ، ممارسا فرائضها ، قائما على عباداتها ، مفصلا أسرارها ، لكأنه الخبير الحكيم الذى قصده القرآن العربى (11 / 1) فى قوله : " ألر : كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (54) .

" ألر " ، و " ألم " و غيرها من الحروف السرية الواردة فى أوائل السور ... يقول فيها المفسرون : " الله أعلم بمراده " . " ألر " ترد هكذا خمس مرات ، و " ألم " ست مرات . و تبتدئ الآيات بعدها بأمر ألهى فى أهمية الكتاب ووحيه الألهى مثل : " ألر تلك آيات الكتاب " ، و " ألر كتاب أحكمت آياته " ، و " ألم تنزيل الكتاب " ، و " ألم تنزيل الكتاب " ... و قد تعنى ما كان يرد عادة على لسان الأنبياء : " قال لى الرب " ، و فى الأرامية : " أمر لى مربو " = " أمر لى ماريا " ، و ذلك للدلالة على مصدر الكتاب الألهى .

خامسا : مهمة القس ورقة

جاء فى صحيح البخارى أن القس ورقة " كان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب" (55) و جاء فى صحيح مسلم أن القس ورقة كان يكتب الكتاب العربى ، و يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب (56) و جاء فى أبى الفرج الأصفهانى أن ورقة كان أمرا تنصر فى الجاهلية ، و كان يكتب الكتاب العبرانى ، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب (57) .

لئن كان الخلاف بين هذه الروايات ظاهرا ، فإن بينها ، من حيث المعنى و المدلول ، وفاقا . كلها تشير إلى أن القس ورقة كان ينقل الإنجيل من العبرانية إلى العربية ، و إلى أن الإنجيل الذى كان بحوزته و ينكب على تعريبه هو الإنجيل المعروف فى الكنيسة ب " الإنجيل بحسب العبرانيين ط ، أو ب " الإنجيل العبرانى " ، أو أيضا ب " الإنجيل بالعبرانية " ، و تشير أيضا إلى أن القس ورقة كان يعرف ، إلى جانب اللغة العربية ، اللغة العبرانية التى منها ينقل .

لم يعرف ، فى كتب السير و التاريخ ، عن القس ورقة مهمة غير هذه ، وهى مهمة نقل الإنجيل العبرانى . لكأنها مهمته الأساسية التى عرف بها و لم يعرف بغيها . هذه المهمة ، مع تتبعه الكتب ، أكسبته صفة العلم ، حتى غدا من أهله و من " الراسخين فى العلم " و قد يكون النقل من لغة إلى لغة من أهم المهام للذين يوصفون ب " العلم " لذلك ، لم يعرف ، فى زمن النبى ، غير القس ورقة يعمل بالنقل و الترجمة ، مما يدل على تفرده بهذا العمل الجليل .

و الكتاب الذى كان القس يعكف على نقله و تعريبه هو " الإنجيل العبرانى " ، المعروف لدى آباء الكنيسة و الواسع الانتشار فى الأوساط النصرانية . فالقديس جيروم وجده فى حلب و نقله من الآرامية إلى اللاتينية (58) ، و استشهد به أغناطيوس الأنطاكى فى إنطاكية (59) ، و قرأه أوريجينوس فى الإسكندرية (60) ، و نقله القس ورقة فى مكة إلى العربية (61) . و مما يدل على أنه هو نفسه كان بين يدى القس تلك الصلة القريبة جدا بين تعاليمه و تعاليم القرآن العربى الذى ظهر فى فترة زمنية واحدة ، كما سترى أضف إلى ذلك اعتباره إنجيلا خاصا بالشيعة الأبيونية التى رأينا انتماء القس إليها .

و يبدو أن الإنجيل العبرانى هذا كان وحده دون سواه من الأناجيل بين يدى القس ورقة ، بدليل ذكره دون غيره فى كتب السيرة و الحديث ، و بدليل ذكر القرآن لإنجيل واحد معرف بالألف و اللام ، حيث لا ترد فيه صيغة الجمع إطلاقا ، فى حين إننا نعلم وجود " أناجيل " متعددة ، معروفة منذ الجيل الأول للمسيحية ، إن فى رواياتها القانونية الأربع ، و إن فى رواياتها المنحولة فمنذ أوائل المسيحية كان المسيحيون يعرفون إنجيل متى و إنجيل مرقس و إنجيل لوقا و إنجيل يوحنا ، و منذ البدء كان النصارى يعرفون إنجيل بطرس و إنجيل الرسل الأثنى عشر و إنجيل النصارى و إنجيل الطفولة و إنجيل العبرانيين و غيرها .

---

(55) صحيح البخارى بشرح الكرمانى (1 / 38 _ 39)
(56) صحيح مسلم (1 / 78 _ 79)
(57) الأغانى لأبى فرج الأصفهانى (3 / 114)
(58) St . Jerome , Comm . sur Isaie , X I , 2 ; Comm . sur Ezechiel , X V I I I , 7 ; Comm . sur Ephesiens , V , 3 , 4 ; Com . sur Mat . X I I , 13 ; Dialogue contre Les Pelagiens , I I I , 2 ; De Viris illustribus , I I …
(59) Ignace d : antioche , Smyrnes , I I I , 2 ....
(60) Origene , Comm . sur st . Mat . , X V , 14 ; Comm . sur s Jn , I I , 12
(61) أنظر المراجع السابقة (55 ، 56 ، 57)

فذكر القرآن العربى لإنجيل واحد مفرد ، على إنه الإنجيل الوحيد الذى عرفه ، يثبت أنه " الإنجيل العبرانى " ، خاصة و نحن نجد فيه و فى القرآن وفاقا تاما فى العقيدة و الفروض و العبادات و أحوال المعاد الأخير ، مما سنراه مفصلا فى الفصل الأخير .

أضف إلى ذلك اعتبار القرآن للإنجيل منزلا من عند الله على عيسى ابن مريم : " و أنزل التوراة و الإنجيل " (3 / 3) ، و " قفينا بعيسى ابن مريم و آتيناه الإنجيل " (57 / 27) . و هو يستشهد ببعض أمثاله فى مثل قوله : " و مثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ... " (48 / 29) ، و يستشهد به على صحة دعوة النبى " الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل " (7 / 157) ، و يدعو أهله لأن يحكموا على صدق ما فى القرآن : " و ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه (أى فى القرآن) " (5 / 47) ، و يعتبره أخيرا " هدى و نور " (5 / 46) ، (3 / 3) .

هذ ه الأدلة الخطيرة حقا تجيز لنا القول فعلا بأن القرآن العربى عرف عن كتب الإنجيل الذى كان القس ورقة بن نوفل ينقله إلى العربية ، و هو الإنجيل العبرانى الذى يأخذ الأبيونيون بتعاليمه و فرائضه ، فى حين أننا لا ننكر وجود تعالم نصرانية أخرى كانت تطوف فى أجواء القس و النبى ، و مردها إلى أناجيل أخرى و كتب نصرانية أخرى وجدت بين شيع نصرانية عرفنا وجودها فى مكة .

سادسا : القس ورقة رئيس النصارى

قيل عن ورقة بن نوفل أنه كان قسا و القس رئيس النصارى (62) و عرف ورقة عن نفسه أمام محفل من قريش يحضر زواج النبى من خديجة قائلا : " نحن سادة العرب و قادتها " (63) . و عرف أهل مكة مقام القس عندهم فولوه أمور دينهم و شؤون دنياهم ، و استرشدوا بآرائه ، كما فعلت خديجة حيث قيل عنها : " أن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة " (64) .

نفهم من هذه الأقوال أن ورقة كان رئيسا على كنيسة مكة النصرانية فى زمن عبد المطلب و فى فترة من حياة محمد . و كان له فيها دور روحى و زمنى : فعليه تقوم مهمة قيادة الكنيسة ، و تعليم الناس و إرشادهم ، و تفسير الكتاب و تأويله ، و به تناط خدمة الهيكل ، و إليه يرجع فى مختلف أمور الدين العقائدية منها و التشريعية عليه تقوم مهمة تفقيه رعيته الوحى و معانى التنزيل ، يفصل لهم آيات الكتاب ، و ينقل إليهم ما عجم منه ، و ييسره لهم بلسان عربى مبين ، و يثبتهم فى إيمانهم ، و يزكيهم من خطاياهم ، و يهديهم إلى الصراط المستقيم ، فهو بكلمة ، أولهم و سيدهم و قائدهم و المسؤول عنهم .

هذه المسؤوليات هى من خصائص كل قس مسؤول و كل رئيس فى كنيسة المسيح . لقد دار حوله كل " الحمس " من قريش ، من عبد المطلب زعيم مكة ، إلى أبى بكر الصديق و عثمان بن الحويرث و زيد بن نفيل و عبيد الله بن جحش و عبد الله ابن جدعان و غيرهم ممن عرف عنهم التحنث و التحنف فى غار حراء . و دار حوله النبى محمد طيلة أربع و أربعين سنة من حياته .

كما كان القس ورقة " رئيس النصارى " هكذا سيكون النبى محمد " أول المسلمين " (65) . و كما قامت مسؤولية النبى على تعليم الناس ما لا يعلمون ، يتلو عليهم آيات الكتاب ، و يزكيهم من خطاياهم : " أرسلنا فيكم رسولا منكم ، يتلو عليكم آياتنا ، و يزكيكم ، و يعلمكم الكتاب و الحكمة ، و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون (66) ، هكذا كانت مسؤولية القس فى الجماعة النصرانية .

و ليس أدل على ذلك من كثرة اهتمام القس بالنبى نفسه : فهو الذى زوجه من خديجة ، و هو الذى دربه على التأمل و الصلاة فى غار حراء ، و هو الذى بدأ فى إعلان نبوته على العرب ، كما سترى .

إن هذه المسؤولية الهامة لجديرة بالاهتمام . فهى تظهر لنا الدور الذى قام به القس فى جماعة مكة النصرانية ، و سلطته فى تعريب الإنجيل من العبرانية ، فى ترجمته على العرب ، و مكانته العالية فى مكة و بين زعماء قريش و تجارها الميسورين ، و توليه أمر الكعبة بيت الله ، و ملازمته الهيكل و الطواف حوله . أنها مهمات تناط بال " رئيس " السيد القائد و الكاهن الجليل . و ربما شعر بعض الصحيح و الحديث بهذا الدور الخطير حتى أعلنوا عن أهمية القس فى مكة عندما قالوا : " و لم ينشب ورقة أن توفى و فتر الوحى " (67) ، أو ما امتدحه النبى بعد موته فى قوله : " أبصرته فى بطنان الجنة و عليه السندس ، أنى رأيت جنة أو جنتين " (68) .

---

(62) السيرة الحلبية (1 / 363)
(63) السيرة المكية (1 / 123) ، السيرة الحلبية (1 / 155)
(64) السيرة الحلبية (1 / 275)
(65) القرآن (39 / 12) ، (6 / 14) ، (6 / 163)
(66) القرآن (2 / 151) ، (2 / 129) ، (2 / 239) ، (3 / 164) ن (62 / 2)
(67) صحيح البخارى بشرح الكرمانى (1 / 38)
(68) السيرة الحلبية (1 / 274)

سابعا : موت القس ورقة

المعروف عن موت القس ورقة قليل جدا . فكما نجهل ولادته و مدة حياته كذلك نجهل أسباب وفاته و اليوم الذى توفى فيه . إلا أنه قيل فيه أنه مات عن عمر يفوق المائة سنة . و لا يستبعد طول عمره طالما أنه كان صديق عبد المطلب جد النبى و نديمه . و قد قيل عن عبد المطلب أنه مات و له من العمر مائة سنة و نيف . و يذكر أيضا أن ورقة توفى بعدما بدأ محمد رسالته بثلاث أو أربع سنين ، أى عندما كان لمحمد من العمر أربع و أربعون سنة . و يوافق ذلك ما نراه عند ابن الجوزى فى كتاب الإمتاع " أن ورقة مات السنة الرابعة من المبعث " (69) و فى سيرة ابن اسحق و فى كتاب الخميس ... (70) .

و يرجح طول حياة القس ما كان عليه فى أخر أيامه من صم و عماء . و هو ما يشير إلى نقل عبء السنين عليه و فى الواقع ، إذا كان القس نديما لعبد المطلب يتحنث و إياه فى غار حراء ، و كان محمد يومئذ فى بيت جده طفلا يناهز الثمانى سنين ، ثم توفى القس و لمحمد أربع و أربعون سنة ، يكون على هذا المقدار الكبير من السنين .

أما أثر موت القس على الوحى فظاهر فى كلام البخارى قال : " و لم ينشب ورقة أن توفى و فتر الوحى " (71) . و هذا يدل على ما كان عليه القس بالنسبة إلى النبى . لقد كان له العضد الأمين ، و المرشد الحكيم ، و الوسيط الطاهر بينه و بين الله ، و هو ما يشير إلى كونه رجلا صالحا ، له دور فعال فى الدعوة الجديدة التى كان النبى قيما عليها بعد وفاة القس سيد العرب و قائدهم و رئيس دينهم .

و يختلف أهل السير و الأخبار فى موت القس ورقة إن كان على الإسلام أو على النصرانية ففى رواية عن ابن العباس أنه " مات على نصرا نيته " (72) ، و فى كتاب الإمتاع لأبن الجوزى أن القس ورقة كان " آخر من مات فى الفترة و دفن بالحجون . فلم يكن مسلما (73) و الفترة هى المدة التى تفصل بين عيسى و محمد ، حيث لم يكن نبوة و الحجون هو مدفن الحنفاء من آل قريش ، حيث قبر عبد المطلب جد النبى ووالديه .

إلا أن مفهوم أهل السير و الأخبار للنصرانية ، كدين غير دين الإسلام فيه نظر و مفهومهم لرسالة القس كونها تختلف عن رسالة النبى فيه أيضا نظر .

و فى كل حال أن ما قاله النبى عن مصير القس بعد موته يفوق كل تصور و يتحدى مفاهيم أهل السير و الأخبار للنصرانية و الإسلام يقول النبى : " لقد رأيت القس ، يعنى ورقة ، فى الجنة ، و عليه ثياب الحرير " و فى رواية : " أبصرت فى بطنان الجنة ، و عليه السندس " و فى رواية أيضا " قد رأيته ، فرأيت عليه ثيابا بيضا ، و أحسبه ، لو كان من أهل النار ، لم تكن عليه ثياب بيض " و فى أخرى " لا تسبوا ورقة ، فإنى رأيت له جنة أو جنتين ، لنه آمن و صدقنى " (74) .

فأقوال النبى هذه عن مصير ورقة ، أن لم تؤيد إسلامه ، فإنها تؤكد إيمانه و هدايته و بالتالى نجاته ، بل نحاته فى أعلى درجات الجنة . و الذين ميتا على النصرانية يقصدون هلاكه أكثر مما يقصدون نجاته ، لأنه ، فى ظنهم أدرك الدعوة المحمدية دون أن يؤمن بها ، عرفها و لكنه لم يعتنقها ...

---

(69) راجع السيرة الحلبية (1 / 274)
(70) نفس المرجع
(71) صحيح البخارى (1 / 38)
(72) أنظر قول ابن العباس فى السيرة الحلبية (1 / 273)
(73) ابن الجوزى فى الإمتاع نقلا عن السيرة الحلبية (1 / 273)
(74) ترى هذه الأحاديث للنبى فى السيرة الحلبية (1 / 274)

خاتمة الفصل

القليل المعروف عن القس ورقة بن نوفل فى كتب السير و الأخبار يدل على الكثير من نسبه الشريف و مقامه الجليل و مهمته فى مكة , و هذا القليل ، ما كنا نعتمد عليه ، لو لم يؤيد القرآن صحته . بنوع أننا لا نفهم من تعاليم القرآن شيئا أن غابت عنا تعاليم " الإنجيل العبرانى " الذى كان القس يعمل على نقله من لغته العبرانية إلى اللغة العربية . كما أننا لا نفهم من قصص الأنبياء الأقدمين ، و لا من تعاليم التوراة و الإنجيل ، الورادة فى القرآن ، أن لم نردها إلى أصلها و المصدر الذى عنه أخذت و قصة يحيى ابن زكريا ، و بشارة الملاك بمولده ، و مولد عيسى ، و معجزاته ، و إنجيله ، و حوارييه ، و رسالته ، و كل تعاليمه و أمثاله ، و كيفية موته ... و غيرها ، جميعها لا نفهم منها شيئا إن لم نرجع بها إلى تعاليم القس ورقة و إنجيله العبرانى .

و يصعب علينا ، فى كل حال ، أن نفهم استمرارية الوحى على الأنبياء ، و أخذ بعضهم عن بعض تعاليمهم و قصصهم و شرائعهم ، ألن لم يكن هناك من يضمن هذه الاستمرارية و هذه التعاليم ، و يكون ، بالتالى ، الواسطة بين الوحى السابق و الوحى اللاحق ، أى بين التوراة و الإنجيل من جهة ، و القرآن العربى من جهة ثانية .

و لسنا نجد فى مكة ، فى أيام النبى محمد ، غير القس ورقة يلازم محمدا طيلة الأربع و أربعين سنة .و قد يكون فى مكة و الحجاز و بلاد الشام غير القس ورقة يعلم الناس و يبشرهم بالإنجيل و يدربهم على الشرع النصرانى ، إلا أن شرف القس ورقة و نسبه و مقامه و رئاسته على كنيسة مكة و قرابته من النبى و من خديجة و تحمسه فى دينه و إيمانه و ممارساته الروحية ، كلها تثبت لنا العلاقة المتينة بينه و بين النبى .

الفصل الثانى

القس و النبى فى معترك الحياة

أولا : القس يزوج النبى

ثانيا : القس يدرب النبى

ثالثا : القس يعلم النبى

رابعا : القس يعلن النبى خليفته

خامسا : القس النبى و النبى القس

أولا : القس يزوج النبى

بعدما دخل محمد فى خدمة خديجة ، بإلحاح من عمه أبى طالب الذى قال له يومها : يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، و ليس يمدنا

و ما يقومنا ، و لا تجارة (1) ، راح محمد يعمل فى تجارة خديجة بصدق و أمانة ، و راحت هى تدفق عليه الأموال و تعطيه ضعف ما تعطى رجلا من قومه (2) ثم أرسلت إليه ذات يوم خادمتها " نفيسة " تفاوضه فى الزواج منها . و روت لنا " نفيسة " قائلة : " فأرسلتنى دسيسا إلى محمد بعد أن رجع فى غيرها من الشام فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدى ما أتزوج به فقلت : فإن كتبت ذلك و دعيت إلى المال و الجمال و الشرف و الكفاية ، ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قلت : خديجة . قال : و كيف لى بذلك ؟ قلت : بلى . و أنا أفعل . فذهبت فأخبرتها . فأرسلت إليه أن أتت الساعة كذا و كذا " (3) .

و عندما بلغت الساعة الحاسمة ، أرسلت خديجة إلى أعمامها فحضروا و أرسل محمد إلى أعمامه فحضروا هم أيضا . و أجتمع الناس . و خطب ولى أمره أبو طالب و قال : " ... و ابن أخى له فى خديجة بين خويلد رغبة ، و لها فيه مثل ذلك " و خطب القس ورقة ولى أمر خديجة و قال : " الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، و فضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب و قادتها ، و أنتم أهل ذلك كله . لا ينكر العرب فضلكم فاشهدوا على يا معش قريش " إنى قد زوجت خديجة بين خويلد من محمد بن عبد الله " .

و فرح أبو طالب فرحا شديدا ، و قال : " الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب و دفع عنا الغموم " (4) و قال أيضا عن ابن أخيه : " و هو ، و الله ، بعد هذا (الزواج) ، له نبأ عظيم و شأن خطير " (5)

****

نتوقف عند حدث الزواج هذا لنبدى بعض الملاحظات . فهو حدث خطير و هام فى شأن القس و النبى ، و فى شأن المخطط الذى يتنفذ على يد أبى طالب و خديجة لقد وقع النبى ، على ما يبدو ، وقعة إلهية بين يدى أولياء أمره . و توالت عليه ، بعد حدث الزواج ، الإعلانات الصريحة عن نبوته العتيدة و رسالته المقررة . و لم تبخل علينا كتب السير و الأخبار فيما كان عليه القس و العم و الزوج . لقد كان لكل منهم دوره فيما دبر الله على أيديهم المباركة .

ـ يلاحظ أولا : مقام القس ورقة فى مكة و فى آل قريش : فهو سيد العرب و قائدهم ، من قوله : " نحن سادة العرب و قادتها " و قد اعتبرته كتب السيرة " رئيس النصارى " و المسؤول عنهم . و نستدل على ذلك من أولويته فى محفل الزواج و من تقدمه على كافة الحاضرين . و القس ، على ما نعلم ، محظوظ بثقة الناس موفور الاحترام .

ـ يلاحظ ثانيا : أن القس لم يكن حاضرا حفلة الزواج و متقدما على الحاضرين و حسب بل كان محتفلا بالعقد و مكللا فهو الذى أبرم العهد ، و شهد عليه ، و أعلن على الحضور ما جرى . هو المحتفل الأول بالعقد ، أو قل هو " الكاهن " الذى ربط ، باسم الله ، ما لا يحله إنسان ، بحسب تعليم إنجيل الأبيونيين . كاهن نصرانى يبارك الزواج ، فعلى أى دين يكون الزوجان إذن ؟

(1) طبقات ابن سعد (1 / 119 ، 156 ، 168) ، السيرة الحلبية (1 / 147)
(2) السيرة المكية (1 / 118) ، طبقات ابن سعد (1 / 129) ، الحلبية (1 / 147)
(3) طبقات ابن سعد (1 / 131) ، السيرة الحلبية (1 / 152 _ 153)
(4) السيرة الحلبية (1 / 155) ، السيرة المكية (1 / 123)
(5) سيرة ابن هشام (1 / 194)

ـ يلاحظ ثالثا : صيغة العقد التى قالها القس على الزوجين و أمام الحضور أنها الصيغة المستعملة عادة عند النصارى مع عناصرها الأساسية لصحة الزواج :

ــ <u>العنصر الأول</u> : وجود القس و أشرافه المباشر اللذان اتضحا فى صيغة المتكلم من قول ورقة : " أنى قد زوجت "

ــ <u>العنصر الثانى</u> : رضى الزوجين الذى بدا أكيدا فى حديث : نفيسة " مع كل من محمد و خديجة ، و فى رضى محمد الذى " ذكر ذلك لأعمامه " بفرح و سرور (6) ، و فى خطبة أبى طالب الذى أعلن " رغبة " ابن أخيه .

ــ <u>العنصر الثالث</u> : وجود شهود عيان من آل قريش و من الأقرباء و الأنسباء .

ــ <u>العنصر الرابع</u> : إعلان القس لعقد الزواج إعلانا صريحا أمام الحاضرين .

ــ <u>العنصر الأخير</u> : استمرارية الزواج الذى ربط بين الزوجين حتى موت أحدهما ، و بالفعل كان ذلك إذ " كانت خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله و لم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت " (7) .

ــ يلاحظ رابعا : مقاصد القس فيما دبر على يد خديجة . أنه زواج دبره القس و رغب فيه قبل أن ترغب هى . فهو الذى أعلن قبل سواه هذه الرغبة فى قوله : " و رغبنا فى الأتصال بحبلكم و شرفكم " (8) بالرغم من رفض والدها الذى تسأل قائلا : " أنا أزوج يتيم أبى طالب ؟ ! لا لعمرى . فقالت له خديجة : ألا تستحى ؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش ؟ فلم تزل به حتى رضى " (9) . و فى رواية " أن خديجة قالت لمحمد : أذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة فلما جاءها و معه رسول الله قالت له : يا أبا طالب تدخل على عمى (ورقة) فكلمه يزوجنى من ابن أخيك محمد بن عبد الله . فقال أبو طالب : يا خديجة لا تستهزئى ! فقالت : هذا صنع الله (؟ ؟ ؟) فقام فذهب و جاء مع عشرة من قومه إلى عمها (10) . و لن ندرك الآن مقصد القس فى ذلك . لعله ، و هو الأبيونى المذهب يريد الاهتمام باليتيم و الفقير محمد ؟ أو لعله ، و هو قس مكة يريد خليفة له من بعده ؟ أو يدبر قائدا و سيدا على قريش كما كان هو ؟

ــ يلاحظ خامسا : دخول أبى طالب هو الآخر فى مخطط القس و تدابيره . و هو واضح فى قوله : " و هو (محمد) و الله بعد هذا (الزواج) له نبأ عظيم و شأن خطير " و نحن نسأل : من أين لأبى طالب معرفة المستقبل و استنباط التنبوءات ؟ من أين للعم أن يعرف ما سيكون عليه مصير ابن أخيه ؟ ثم أن أبا طالب رضى أن يزوج محمد الشاب من أرملة لرجلين قبله ، رضى بذلك مسرورا ، فأعلن : " الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب و دفع عنا الغموم " و نسأل : أكان النبى على عمه عالة ، أم أراد العم لأبن أخيه قصاصا ، " و هو الذى يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، و كان لا ينام الا إلى جنبه ، و كان يحفظه و يحوطه و يعضده و ينصره إلى أن مات " (11) . كيف رضى له ذلك لولا مخطط القس المدبر الذى يعوض على محمد عن الأجحاف العاطفى بقيادة روحية و سيادة زمنية على العرب ؟

ــ و يلاحظ أخيرا دخول محمد نفسه فى تدابير القس : فتى فى الخامسة و العشرين من عمره يتزوج من امرأة تجاوزت الأربعين ، و أرملة لرجلين قبله و أم لعدة أولاد (12) هذا الشاب ، مهما كان جريئا ، لا يخطر بباله ، و هو الخادم ، أن يتزوج من سيدته التى شفقت به و استخدمته فى تجارتها ، و قد كان قومها حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها و ذكروا لها الأموال فلم تقبل . لن يكون لمحمد ذلك لولا دافع دبر له المناسب . و من يكون هذا الدافع غير القس ؟ فلولا القس لما كان ما كان ، و متى أراد القس شيئا كان .

---

(6) سيرة ابن هشام (1 / 173) ، السيرة الحلبية (1 / 153)
(7) سيرة ابن هشام (1 / 174)
(8) طبقات ابن سعد (1 / 133) ، سيرة ابن هشام (1 / 195) ، الحلبية (1 / 155)
(9) طبقات ابن سعد (1 ، 131 _ 133)
(10) السيرة الحلبية (1 / 154)
(11) طبقات ابن سعد (1 / 119 ، 121)
(12) السيرة الحلبية (1 / 156)

ثانيا : القس يدرب النبى

بعد أن أرتبط مصير محمد بمصير خديجة انحلت من مخطط القس عقد كثيرة . لقد وقع النبى فى قبضة القس وقعة ألهية . لقد تمت الخطوة الأولى بنجاح . وضع القس خبرته فى خدمة نسيبه و أراه مستقبلا غنيا بالأمانى و الآمال . ووضعت ثرية قريش كل ما لها فى تنفيذ رغبات ابن عمها . و تعاون الاثنان ، بما لهما من خبرة و دهاء و جاه و مال ، على أعداد النبى للرسالة المقررة . و سار القس به على طريق النجاح المكفول . و النجاح المكفول يصار إليه حثيثا . و الرسالة المهمة تتم بالتدريب المتواصل و التهيئة الباطنية . فكان أول ما كان و أهم ما كان الخلوة . و الخلوة فى غار حراء حيث اعتكف جده و ندماء جده و " الحمس " من آل قريش . هناك فى مدة تزيد على الخمس عشرة سنة ، راح القس و النبى يختليان و يصليان و ينقطعان عن الناس و يفكران بالله ، شهرا كاملا من كل سنة . هناك تدرب النبى على يد القس الخبير بشئون الله و الناس .

لم تكن الخلوة بعيدة عن طبع محمد . لقد كان له ذلك منذ صغره ، على حدة شهادة أقرب المقربين إليه . و هى إشارة هامة نحو النجاح . لقد شهدت مرضعته حليمة السعيدية و قالت : " لما ترعرع كان يخرج إلى الصبيان و هم يلعبون فيتجنبهم و لما قرب الزمن الذى أراد الله أن يرسله فيه ازداد محبة فى الخلوة لأن الخلوة يكون فيها فراغ القلب و الانقطاع عن الخلق . فهى تفرغ القلب عن أشغال الدنيا لدوام ذكر الله . فيصفو و تشرق عليه أنوار المعرفة . فلم يكن شئ أحب إليه من أن يخلو وحده . و كان يخلو بغار حراء . فكان يتحنث فيه ، أى يتعبد فيه الليالى ذوات العدد مع أيامها . (13) . و شهدت عائشة و قالت : " ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، و يتحنث فيه ، و هو التعبد الليالى أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله و يتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجئه الحق و هو فى غار حراء " (14) . و أكدت خديجة ذلك بقولها : " حبب الله إليه الخلوة التى بها يكون فراغ القلب و الانقطاع عن الخلق " (15) .

و لكن ، لم يكن محمد يعرف وحده أهمية الخلوة إعداد للنفس و انقطاعا إلى الله لو لم يتعرف على أناس مارسوها قبله ، و لو لم يتبع فى ذلك سيرة جده و ندماء جده أمثال أبى أمية بن المغيرة و القس ورقة بن نوفل و غيرهما (16) . فعن هؤلاء أخذ محمد الطريقة . و على خطواتهم سار فى تهيئة حياته الروحية و رسالته العلنية بين الناس . و قد شهدت السية على خلوة محمد و مقوماتها بقولها : " كان رسول الله يجاور فى غار حراء من كل سنة شهرا . و كان ذلك تحنث به قريش فى الجاهلية . (17) ، و بقولها أيضا : " كان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين . فإذا قضى جواره من ذلك الشهر ، كان أول ما يبدأ به ، إذا أنصرف من جواره ، الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا ، أو ما شاء الله من ذلك . ثم يرجع إلى بيته . حتى كان الشهر الذى أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته " (18) .

لا نعرف بالحصر مقومات خلوة محمد فى غار حراء ، و لا كيفيتها ، بحسب ما جاء على لسان السراج البلقينى فى شرح البخارى : " لم يجئ فى الأحاديث التى وقفنا عليها كيفية تعبده " (19) . إلا أنها قد وصفت بما وصفت به خلوة عبد المطلب و القس ورقة و غيرهما من قصد حراء للاعتكاف و التعبد و الرياضة الروحية . و فى كتب السيرة وصف لها بما يتفق و التقاليد النصرانية فى ذلك الحين أهمها :

---

(13) السيرة الحلبية (1 / 257 ، 260)
(14) صحيح المسلم (1 / 78 ، 79) ، صحيح البخارى (1 / 39) ، ابن سعد (1 / 194 ...)
(15) سيرة ابن هشام (1 / 216) ، السيرة الحلبية (1 / 258)
(16) السيرة الحلبية (1 / 259)
(17) سيرة ابن هشام (1 / 218) ، أنظر تفسير الطبرى (2 / 48)
(18) نهاية الأرب (16 / 170) ، ابن هشام (1 / 219) ، الحلبية (1 / 259 ..)
(19) السيرة الحلبية (1 / 259)

1 ــ <u>الزهد و الانقطاع عن الناس</u> . يقومان على ترك ما فى الدنيا من مباهج و طيبات ، و اعتبار الدنيا ، بحسب تحديد الغزالى فيما بعد ، كلا شئ ، طمعا أو رغبة فى لقاء الله بأيد نظيفة من

علائق المادة . و يقوم الحوار فى حراء على التخلى عن مجادلات الناس التى لا منفعة فيها ، و الابتعاد عن أهتماماتهم الدنيوية ، لكى يكون كل شئ لديه مدعاة لطلب الحق من الله وحده . كما يقوم على إفراغ القلب من أشغال الدنيا ، و دوام ذكر الله ، فيصفو و تشرق عليه أنوار المعرفة " (20) .

2 – التحنث و التحنف . يقومان على التفكر بالله وحده و التعبد له ، و إقامة أعمال الروح من صلاة و تأمل و تهجد و هذيان روحى و قراءة كلمة الله فى كتبه المنزلة ، و سماع تفسيرها من مرشد خبير يساعده فى معراجه الروحى ، و الاعتكاف على شرحها و تأويلها و تفصيلها مع من يمكنه ذلك . و لذلك قيل فى مواضيع تحنث محمد بأنه " كان يتعبد قبل النبوة بشرع إبراهيم " (؟) ، و قيل بشريعة موسى ، و قيل بكل ما صح أنه شريعة لمن قبله " (21) . و هذا هو المعروف لدى النصارى القائمين على أحكام موسى و عيسى ، أو أحكام التوراة و الإنجيل .

3 – الصيام . قدوة بصوم موسى و أيليا على جبل حوريب و صوم عيسى فى برية الأردن و صوم الآباء الأولين ، كان محمد يقضى شهره فى الانقطاع عن الأكل أو فى أكل وجبة واحدة فى اليوم ، و فى الاقتصار بهذه الوجبة على المآكل الخفيفة من الأعشاب و الثمار و الألبان و كسر الخبز اليابسة و النباتات التى يلتقطها من الصحراء و يأكلها ، لا للتنعم بطعمها بل لسد جوعه و حاجته الغذائية الماسة إليها . و عرف محمد أنه كان يتزود لصيامه الكعك و اللبن (22) .

4 – أعمال البر و الإحسان . لم تخل خلوة النبى من عمل الحسنة تجاه من يراه بحاجة إليها . لقد كان " يطعم من جاءه من المساكين " (23) ، حتى أن طيور السماء ووحوش الجبال كانت تتنعم بشفقته بها و عطفه عليها . هذه الناحية من حياة محمد كانت تستأثر باهتمامه ، و هو الذى ذاق مرارة البؤس و الحرمان منذ صغره ، و هو الذى تعلم على جده و عمه و نسيبه قس مكة أن يكون شفوقا بالمساكين عطوفا على المحتاجين و سخيا فى العطاء . و لا يخفى ما فى تعاليمه من حث على عمل الحسنات و الصدقات و الاهتمام بالأرامل و اليتامى و أبناء السبيل ، كما لا يخفى هجومه العنيف على مترفى مكة و أثريائها و " الملأ الأعلى " من قبيلة قريش ، و منهم بعض أعمامه كأبى لهب و " آمراته حمالة الحطب " .

5 – شهر رمضان . هو شهر الخلوة و الصيام و الصلاة و التعبد . فيه كان النبى يعتكف فى غار حراء ، و فيه كان يحظى بنعم الله ، و فيه كان يتحنث و يتفكر بالله و يتأمل فى كتبه المنزلة . أنه شهر الهدى الذى نزل فيه الوحى تلطفا . لقد كان رمضان ، قبل التشريع القرآنى ، شهر صيام نصرانى ، و قد أشار الكتاب إلى ذلك بقوله : " كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم " (2 / 183) .

6 – الطواف فى البيت . فى نهاية شهر الخلوة و الصيام كان ينزل محمد من على جبل حراء و يذهب إلى بيت الله للشكران و الاحتفال بالعيد ، فيطوف بالكعبة سبع مرات ، ثم يرجع إلى بيته و زوجته مطمئنا متما واجبه المقدس . تقول السيرة النبوية : " و كان إذا قضى جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به إذا أنصرف قبل أن يدخل بيته ، الكعبة ، فيطوف بها سبعا ثم يرجع إلى بيته " (24) كما هو حال النصارى ، بعد صيامهم الأربعين ، يحتفلون بعيد الشعانين ، و يطوفون حول كنائسهم سبع مرات . كذا فى الأصل .

---

(20) السيرة الحلبية (1 / 259)
(21) نفس المرجع (1 / 260)
(22) السيرة الحلبية (1 / 259)
(23) سيرة ابن هشام عن ابن اسحق (1 / 219)
(24) سيرة ابن هشام (1 / 211) ، السيرة الحلبية (1 / 260) ، نهاية الأرب (16 / 172)

هذه بعض مقومات خلوة النبى فى غار حراء . كلها عادات نصرانية ، لا يمارسها أى إنسان من ذات طبعه ، و لا تكون لأجل غايات دنيوية . كلها من شرع الله الذى أنزل على موسى و عيسى ، أى التى يمارسها اليهود ـ المتنصرون . و لم يكن بوسع محمد أن يكتشفها وحده لولا إقتداؤه بمن سبقه فى ذلك ، و لولا تدربه على يد مرشد خبير كالقس ورقة بن نوفل أقرب المقربين إليه .

لقد كانت ممارسات محمد الروحية صعبة ، و أرادها كذلك لوفرة تدينه . و لشدتها عليه كانت تحدث له " إرهاصات كان منها جزعا " ، و تنتابه نوبات عصبية شديدة ، خشى أن يكون الشيطان مسببا لها . و لطالما كانت بوادره ترتجف ، ووجهه يتربد ، و يتصبب منه العرق فى الأيام الباردة ، و يصاب بالإغماء ، و يغط كغطيط البكر ، و يسمع عنده دوى كدوى النحل ، و يطلب من زوجته أن تلفه بثياب دافئة ليذهب عنه الروع (25) . هذه الحالات النفسية الشديدة أرته ما أرته من رؤى و أحلام ، ظن نفسه فيها جنيا أو شيطانا . و كانت خديجة تعالجه و تستشير فى أمره ابن عمها القس ورقة (26) .

---

(25) أنظر فى هذا الموضوع ، فى كيفية الوحى و نزوله على النبى و ما كان يحدث له من أهوال : أبن هشام (1 / 220) ، صحيح البخارى (1 / 23 ، 31) ، صحيح مسلم (1 / 98) ، طبقات ابن سعد (1 / 198) ، السيرة الحلبية (1 / 267) ، المكية (1 / 282 ...) و غيرها من مراجع فى السيرة تتفق كلها على ذلك .

(26) ابن هشام (1 / 220 ـ 223) ، الحلبية (1 / 267) ، المكية (1 / 183) .

ثالثا : القس يعلم النبى

طيلة أربع و أربعين سنة و النبى يلازم القس و يتدرب على يده . و هى المرحلة الهامة من حياة النبى و ممارساته الروحية و تثقيفه الدينى . و لا عجب فى أن يقوم التثقيف الدينى على قراءة الكتاب الذى كان ورقة ينقله من لغته العبرانية إلى العربية ، و يحضر محمد نقله ، و يدرسه ، و يتأمل فيه . و كم من إشارة فى القرآن العربى تدل على هذه المهمة الجديدة التى أكتسبها النبى و تلقنها و درسها بشغف الملهوف إلى كلمة الله . و لكى نتأكد من ذلك لابد لنا من إبعاد شبهة تمكنت فى عقول المسلمين ، و هى أمية محمد . و تعنى ، فى نظرهم ، أن محمد كان يجهل القراءة جهلا تاما . و تمسك المتدينون بهذه الأمية ، قصد الدلالة على حقيقة النبوة ، فيما الحقيقة تدل على أن الله أستعمل وسائط طبيعية لإعلان كلمته ، و استخدم إنسانا خبيرا علم محمدا ما لم يكن يعلم . و ما آية " النبى الأمى " الواردة فى القرآن إلا لتعنى شيئا آخر غير الذى يقصده المذهولون .

لذلك فإننا نميز بين أمرين : بين ما كان محمد ، و بين ما كان يعمله و تعلمه بعد حين . أما العلم الذى كان يعمله فهو علم القراءة و الكتابة الذى أكتسبه فى صغره ، و على ذلك أدلة . و أما العلم الذى كان يجهله ثم تعلمه فهو علم الكتاب المنزل ، أى علم الإلهيات و الروحانيات و التشريع ، و هو العلم الذى أكتسبه محمد من " لدن خبير حكيم " (11 / 1) ، و ممن " عنده علم الكتاب " ، و " من الراسخين فى العلم " . و نسمى العلم الذى يعلمه " العلم الطبيعى " ، و العلم الذى أكتسبه فيما بعد " العلم الإلهى " . و كلا العلمين مكتسب .

أولا : <u>العلم الطبيعى</u> :

كان محمد تعلمه منذ صباه ، و هو فى حماية جده و كفالة عمه . قد أراد المتدينون إنكاره عليه ، قصد الدلالة على تدخل الله المباشر فى النبوة ، و قصد إظهار جدة القرآن و الإسلام ، و اعتبار كل شئ فيه من لدن الله . و على هذا العلم أدلة :

1 – أن " الأمى " بحسب القرآن هو من ليس له كتاب منزل . فاليهود ، أبناء أسحق بن إبراهيم ، هم " كتابيون " ، فى حين أن العرب ، أبناء إسماعيل بن إبراهيم ، هم " أميون " و دل القرآن على هذا التمييز دلالة واضحة و صريحة : فهو يدعو الكتابين و الأميين إلى إتباع الإسلام ك " قل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم ؟ " (3 / 20) ، و هو يشير إلى تمنى الأميين معرفة الكتاب : " و منهم أميون لا يعلمون الكتاب الإ أمانى " (2 / 78) . و يفتخر بأن بعثه الله رسولا من غير الكتابيين فيقول : " هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم " (62 / 7) . و قد عرف أهل الكتاب بأن التمييز بينهم و بين الأميين شئ محتوم ، ف " قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل " (3 / 75) ... بهذا المعنى القرآنى الصحيح يجب أن نفهم قول الكتاب عن أمية محمد فى الآيتين التاليتين : " الذين يتبعون الرسول النبى الأمى " (7 / 157) و " أمنوا بالله و رسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله " (7 / 158) فالأميون إذن هم العرب أبناء إسماعيل و الكتابيون هم اليهود أبناء أسحق . و بالتالى إن أمية محمد لا تعنى جهله القراءة و الكتابة بقدر ما تعنى انتماءه للعرب الأميين أبناء إسماعيل الذين ليس لهم من الله كتاب منزل .

2 ـــ و الدليل الثانى من دعوة جبريل للنبى فى السورة الأولى من تاريخ نزول القرآن . فيها يدعو الملاك محمدا قائلا : " اقرأ باسم الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ و ربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم " (96 / 5 - 5) و أجمعت كتب " تفسير القرآن " و كتب " أسباب النزول " ، و كتب السيرة النبوية و الأخبار و الأحاديث و الصحيح و الباحثون المسلمون و المستشرقون على أن هذه السورة هى الأولى فى تاريخ الوحى . و اتفق الجميع على أن جبريل جاء محمدا يحمل إليه كتابا و يدفعه إليه ليقرأه ... فلولا معرفة محمد بالقراءة ، و لولا صحة تاريخها ، و صحة ما جاء فيها ، لما أتفق الجميع على سرد الوقيعة . و لئن كان الله " يمكر " بالناس ، و هو " خير الماكرين " (27) ، أفيمكر أيضا بنبيه ، و بنبيه ، و يكلفه شيئا لا يستطيعه !!!!

3 ـــ إن العلم الطبيعى الذى تعلمه محمد ، لابد أنه تعلمه و هو فى بيت عمه أبى طالب و تحت حمايته . لقد قيل عن أبى طالب فى حبه لأبن أخيه : لقد " أختصه بفضل و احترام و تقدير . و ظل فوق أربعين سنة يعز جانبه و يبسط عليه حمايته " (28) . و " كان يحبه حبا شديدا لا يحبه لأحد من ولده . و كان لا ينام إلا إلى جنبه ، و يخرج فيخرج معه . و صب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشئ قط ، و كان يخصه بأحسن الطعام " (29) . و " كان أبو طالب يحفظه و يحوطه و يعضده و ينصره إلى أن مات " (30) ... هذه العناية الجليلة اقتضت من أبى طالب اهتماما بالغا بشؤون ابن أخيه اليتيم الذى حظى به ابن عمه على صاحب البلاغة المأثورة و منتهج نهجا فى " نهج البلاغة " . و لا يعقل أن يمنع أبو طالب عن ابن أخيه ما تمتع به أبنه و تنعم و أبدع فى مجالاته . و لئن فرق المتدينون بين ربيبى أبى طالب فلغاية فى النفس لا مبرر لها سوى إظهار حقيقة النبوة فى كل شئ فأبى طالب لم يكفل محمدا ليوفر له حاجاته المادية و حسب ، بل وفر له أيضا و قبل كل شئ ما وفره لأبنه من علم و تربية و أخلاق ...

4 ـــ مهما تعددت تأويلات لفظة " قرأ " الواردة فى أمكنة عديدة من القرآن ، فإن المقصود منها القراءة الكتابية ، أى قراءة الكتاب . و الآيات التى تدل على معرفة محمد بالقراءة كثيرة نذكر منها : " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله م الشيطان " (16 / 98) ، و " إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا " (17 / 45) ، و " قرانا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث " (17 / 106) ، " أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " (17 / 14) ... هذه الآيات و غيرها تفيدنا أن محمدا كان يعرف القراءة و يجيدها ، و كان يقرأ الكتاب الذى بين يديه ، فكانت قراءته له " قرآنا ".

ثانيا : <u>العلم الإلهى</u> :

أما العلم الذى كان محمد يجهله فهو الذى تكفل القس بإعطائه لتلميذه الروحى ، هو علم الكتاب المنزل الذى كان القس ينقله فى حضور محمد طيلة أربع و أربعين سنة . هذا العلم " درسه " النبى على القس و فى الإنجيل العبرانى . و " لفظة درس فى القرآن مقصورة على دراسة الكتب المقدسة " (31) . بهذا الدرس تحدى محمد و تابعوه المجرمين الذين لا يستطيعون لا الحكم و لا الخيار لآن ليس لهم كتاب فيه تدرسون ؟ أن لكم فيه لما تخيرون " (67 / 35 - 38) . و لئن أنهم الدارسون فى الكتاب محمدا بأنه لا يأتيهم شيئا جديدا ، فإن تهمتهم ترد عليهم ، لأنه يعمل على تصريف الآيات و تبيينها و تيسيرها فقط : " و كذلك نصرف الآيات و ليقولوا درست و لنبيه لقوم يعلمون " (6 / 105) .

---

(27) القرآن (3 / 54 ، 14 / 46...)
(28) محمد الغزالى فى فقه السيرة (67)
(29) ابن سعد (1 / 119) ، الحلبية (125)
(30) ابن سعد (1 / 121)
(31) Le coran , trad . par D. Masson , sor . V I , 105 ; p . 831

و كان محمد أحسن من درس و تعلم من العرب الكتاب الذى بعثه الله إليه : " و إذ تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا ... إن هذا إلا سحر مبين . و ما آتيناهم من كتب يدرسونها و ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير " (34 / 44) . و الذين درسوا فى الكتاب الذى درس فيه محمد عليهم ميثاق إلا يقولوا الحق : " ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق و درسوا فيه " (7 / 169) . لذلك عليهم أن يعلنوا ما درسوا كما هو يعلن ، و يعلنون : " كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون " (3 / 79) كالفرسين الذين أتهمهم المسيح بأنهم " يقولون ما لا يعملون " (32) . فعلم محمد للكتاب و درس ما فيه و قراءة أخباره ، و تفصيل آياته و تبيينها ، كلها كانت له زادا ليحاجج الناس الذين يجادلون " فى الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير " (31 / 20 ، 22 / 8)

****

النتيجة من كل هذه الأدلة تحسم بمعرفة محمد للقراءة و العلم الطبيعى ، و قد حصلهما منذ صباه ، بطريقة الدرس و الاكتساب ، لا بالحدس و الإلهام الربانى . و معرفة محمد بهذا العلم لا تقلل من دوره الرسولى ، لأن الله ، إذا ما أختار إنسانا ما لرسالة ما ، وفر له المعطيات البشرية المناسبة لأداء هذه الرسالة . و ما إشارة القرآن إلى تعلم محمد " علم ما لا يعلم " سوى علم ما لا يعلم من الكتاب المنزل . و هذا العلم هو أيضا لم يكن حدسا و إلهاما ما بقدر ما كان تعلما و اكتسابا من " الذين يقرؤون الكتاب من قبل " (10 / 94) . و ما رد محمد التهمة عنه إلا دليل آخر على ما تعلمه من أهل الكتاب : " و لقد نعلم أنما يعلمه بشر " (16 / 103) ، فرد بقوله : " لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . و هذا لسان عربى مبين " (16 / 103) . و قد أعترف بذلك عندما قال بأنه لا يعلم الغيب و لا عنده خزائن علم الله : " قل لا أقول لكم عندى خزائن الله و لا أعلم الغيب " (6 / 50 ، 7 / 188) .

و يشهد على علم محمد بالكتاب جملة شهود : الله ، و الملائكة ، و أهل الكتاب . و ردد القرآن العربى هذه الشهادات فيه : " قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم و من عنده علم الكتاب " (13 / 43) ، " شهد الله و الملائكة ... و أولو العلم " (3 / 18) ، " شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله " (أى على مثل القرآن) (46 / 10) ، " يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و أنتم تشهدون ! " (3 / 70) ، " أنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا و الربانيون و الأخبار بما أستحفظوا من كتاب الله و كانوا عليه شهداء " (5 / 44) ...

و يوم يرتاب محمد من علمه و من وحى الله فما عليه إلا أن يسأل أهل الكتاب و يستشرهم : " أن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك " (10 / 94) . و عندما يشك أتباعه من صحة علمه ووحيه ينصحهم بأن يذهبوا إلى أهل الكتاب و يسألوهم : " اسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون " (16 / 43 ، 21 / 7) . و ما القرآن أخيرا إلا تبيان لما أنزل من قبل : " و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم " (16 / 44) .

و من جملة من " عنده علم الكتاب " و شهد شهادة حق فى القرآن و نبيه ، هو القس ورقة بن نوفل ، أقرب المقربين إليه و إلى زوجته . و قد شهدت عائشة بدور ورقة فى قولها : " و لم ينشب ورقة أن توفى و فتر الوحى "

---

(32) إنجيل القديس متى (23 / 3)

رابعا : القس يعلن النبى خليفته

لم يخف القس مقاصده فيما دبر لمحمد منذ أن تعرف عليه . و لم يخف كتب السيرة مقاصد القس هذه . لقد أدركوها ، و عرفوا ما أدركوا ، و حاولوا تجنب خطره . و ما تجنبوه كان إثباتا خطيرا لما نبحث عنه . لقد حاولوا إثبات نبوة محمد ، فيما هم فى الحقيقة يثبتون نبوة القس . حاولوا إرجاع كل شئ إلى الله ، و هم فى الواقع يثقون بقدرة القس ثقة عمياء . بحثوا فى علاقة محمد بالله ، فإذا هم يعلقون محمد بالقس ... و أنت تدرك ذلك عندما تسمع تنبؤات القس على مستقبل محمد تظن أن كتبة السيرة يطلقون ذلك للدلالة على قدرة القس و دوره الخطير ، فيما هم يظنون التدليل على نبوة محمد .

و لا غرابة فى الأمر ، فإن كل شئ قد أعد إلى الآن على أحسن حال ، و القس قدير على كل شئ فى كل حال . و للناس ثقة بقدرة القس ، أى قس ، مما يثبت كل مخطط يرسمه ، و ينفذ كل قصد يعزم على تحقيقه . و قد تيسر له ذلك بسهولة ، لاعتبارات عديدة : منها مقامه الوجيه و شرفه الوسيم بين الناس ، فهو من " سادة العرب و قادتها " ، و منها رئاسته على جماعة مكة ، فهو " رئيس النصارى " ، و منها علمه الواسع بالكتب و الأمور الإلهية ، فهو " يتتبع الكتب من أهلها " ، و منها انقياد الناس له و لأمثاله من القسيسين و الرهبان ، فهم " لا يستكبرون " (5 / 82) ، و اتخذهم الناس " أربابا من دون الله " (9 / 31) ، و منها أخيرا سعى أصحاب الحاجة إليهم و طلب نصائحهم ، و الالتجاء إلى صوامعهم ، و التماس الشفاء من أيديهم ، و استطاعتهم فى اكتشاف الغيب و استطلاع الأسرار الخفية ... و استغل القس ورقة اعتبارات الناس هذه ، و راح يدبر له خليفة يخلفه فى مهمته ، فكان محمد بن عبد الله خير من دبر . و أشرك فى تدبيره هذا أقرب المقربين إليه و إلى النبى . فكان ما أراد . و متى أراد القس شيئا كان ، و القس قدير على أى شئ كان .

أما الذين تعاونوا مع القس و سمعوا نداءه و ذهلوا بتدابيره فأهمهم و أولهم خديجة زوج النبى ، و أبو طالب عمه و كفيله ، و أبو بكر الصديق صديقه الحميم ، ووالد خديجة بعد رضاه ، و أخوها عمرو ، و غيرهم كثير . كلهم انصاعوا لتدابير الله على يد قسه ووكيله فى مكة ، و اتخذوا فيما دبر . و بارك الراهب بحيرا و الراهب عداس النينوى و سلمان الفارسى هذا التدبير (33) . و ساعدوا القس فيما أراد ، فتوالت التنبؤات عن مستقبل محمد من كل جانب ، على ألسنة السحرة و كهان ، و الأنس و الجن ، و الشجر و الحجر ، و الحيوانات على أنواعها ، و الملوك و الأحبار ، و الملائكة و البشر ... و لم تبخل كتب السيرة و الأخبار عن ذكر الكثير منها . و البعض مما ذكر ينبئ عن الكثير مما حدث . و ما كنا ندرى شيئا مما حدث لولا القس يفسر لنا ما حدث . و استمرت الإعلانات تتوالى طيلة خمس عشرة سنة . و أهمها أتى فى ست مراحل هامة من حياة النبى و رسالته :

الإعلان الأول : قبل الزواج :

قبل أن تم مراسيم الزواج بين محمد و خديجة ، و فيما كان محمد يتاجر لها فى بلاد الشام ، رجع ميسرة غلامها الأمين يخبرها بما رأى و بما سمع من مذهلات جرت لمحمد (34) . و لما أنتهى م حديثه ، قامت خديجة للحال ، و أتت مسرعة تخبر ابن عمها ورقة ما سمعته من غلامها عن محمد . و للوقت وقف القس باطمئنان العارف بمشيئة الله يقول : " لئن كان هذا حقا ، يا خديجة ، فإن محمدا لنبى هذه الأمة . و قد عرفت (؟) أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر هذا زمانه (35)

(33) السيرة المكية (1 / 183) ، السيرة الحلبية (1 / 367)
(34) ابن هشام (1 / 175) ، الكامل فى التاريخ (2 / 39) ، الحلبية (1 / 147 – 152)
(35) سيرة ابن هشام (1 / 175 – 177) ، السيرة الحلبية (1 / 151)

لابد لنا أن نسأل ، لا عن حقيقة نبوة محمد ، بل عن حقيقة نبوة ورقة : يدركون الغيب و مستقبلات الناس و لم يعد لهم اليوم ذلك ؟ ! أم أنهم يمكرون كما الله " خير الماكرين " (36) ؟ من أين لكتبة السيرة أن يعرفوا تدابير القس و تنبؤاته لو لم يكن لهم علم بأن الله يعلن عن أنبيائه بواسطة إنسان خبير بمقاصده الإلهية ؟ و فى كل حال ، لقد عرفت خديجة أن تستسلم لتدابير ابن عمها فيما أراد ، و هى التى كانت تسترشد بآرائه ، على حد قول صاحب السيرة : " كان ذلك لخديجة بإرشاد من ورقة " (37) .

الإعلان الثانى : فى بدء الوحى :

لما كان محمد فى غار حراء يتحنث و يصوم و يصلى و يتفكر بالله ، و قد بلغ الأربعين ، أتاه جبريل آخر الشهر يعلن له : " أبشر يا محمد ، أنا جبريل و أنت رسول الله لهذه الأمة " و دفع إليه كتابا يقرأه فاعترى محمدا ذهول " ثم أنصرف عنه الملاك . و رجع المرتاض قافلا إلى بيته يحدث زوجته بما سمع و رأى و للحال أعلنت خديجة ، هى الأخرى العارفة بمشيئة الله : " أبشر يا ابن عمى و أبت فوالذى نفس خديجة بيده أنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة " ثم قامت و جمعت عليها ثيابها و انطلقت إلى ورقة تخبره ما حدث لزوجها . و قبل أن تستكمل حديثها أعلن ورقة مطمئنا و قال : " قدوس قدوس ، و الذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى . و أنه لنبى هذه الأمة " فقولى له فليثبت " (38) .
لقد تكاثرت الشهادات على نبوة محمد ، من الأرض و من السماء : من جبريل و من خديجة و من القس ورقة . و فى مضمونها و مقصودها واحدة . الكل يفسر الرؤيا تفسيرا واحدا . و الكل ينصح صاحبها بالثبات و الاستمرار فيما هو عليه . و الكل يعلن نبوته العتيدة فى الأمة العربية البكر . فهو على خط موسى و عيسى ، سيأتى بناموس للأمين ، كما أتى موسى و عيسى بناموس للكتابين . و لن يكون بين ما سيكون للعرب و بين ما هو لبنى إسرائيل فرق . الناموس هو إياه . و ليس لمحمد إلا أن يعلنه و يكون له رسولا و بشيرا و مبلغا و لكن ، لابد أن نسأل ، لا عن نبوة محمد ، بل عن نبوة خديجة ، التى أعلنت لزوجها نبوته ، و التى عرفت مشيئة الله ، و فسرت الرؤيا كعليمة بأسرار الغيب . فمن أين لها ذلك ؟ أمن الله أم من ابن عمها ؟ الله أعلم .

الإعلان الثالث : فى بدء الرسالة :

لما نزل محمد من على جبل الخلوة و الصلاة ، فى نهاية شهر رمضان ، أتى الكعبة ليطوف بها سبع مرات ، قبل أن يرجع إلى بيته و زوجته بحسب عادته كل مرة . و فيما هو يطوف كان القس يطوف أيضا . و بادره القس بالسؤال : " يا ابن أخى ، اخبرنى بما رأيت و سمعت . فأخبره رسول الله " فأعلن القس ، باطمئنان العارف بمشيئة الله ، و قال : " و الذى نفسى بيده ، أنك لنبى هذه الأمة . و لقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى و لتكذبنه و لتؤذينه و لنخرجه و لنقاتله و لئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه " ثم أدنى رأسه منه و قبل بأفوجة . ثم أنصرف محمد إلى منزله مطمئنا " (39)

---

(36) القرآن (3 / 54 ، 27 / 50 ، 14 / 46 ، 8 / 30 ، 10 / 21)
(37) السيرة الحلبية (1 / 275)
(38) ابن هشام (1 / 221) ، الحلبية (1 / 262) ، ابن سعد (1 / 195)
(39) ابن هشام (1 / 222) ، تفسير الطبرى (2 / 49) ، الحلبية (1 / 263)

هذا هو الاطمئنان المطلوب ، الذى حصل عليه محمد ، و الذى كان يتمناه من ورقة . و هذا هو الاطمئنان الذى يطلب من القس توفيره لرعيته . و هذا هو النصر الذى حاز عليه القس ورقة فى تدبير خليفة له على جماعة مكة . و المطلوب الآن من محمد ، لا أن " يثبت " و حسب ، بل أن يكون " مطمئنا " أيضا . و متى بلغت الطمائنينة قلب محمد ، استطاع القس أن يعلن : " لأنصرن الله نصرا يعلمه " . و استحق الشاب الوديع قبلة من القس على رأسه . بهذه الطمأنينة التى حاز عليها محمد ، بشر فى رسالته العتيدة عندما قال : " بذكر الله تطمئن القلوب " (13 / 28) ، " و ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتطمئن قلوبكم به " (3 / 126 ، 8 / 10) ، و " قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . و لكن ليطمئن قلبى " (2 / 260) . بهذه السكينة الباطنية أيد الله محمدا و جماعته : " فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنوده " (9 / 40 ، 48 / 4) ، و " أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين " (48 / 26 و 18 ، 9 / 26) . و هكذا أنتصر القس نصرا من عند الله بنصر تلميذه : " و ينصرك الله نصرا عزيزا " (8 / 3) ...

الإعلان الرابع : عند نزول الوحى :

بعد هذا النصر أنطلق محمد برفقة أبى بكر غلى القس ورقة طالبا منه تفسير ما يعرض له من نوبات و اغماءات و إرهاصات . فهو لا يدرى من أين هى ، و ممن هى ، و ما معانيها . و أخبره مسترشدا : " إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد ، يا محمد . فأنطلق هاربا إلى الأرض و راح القس يرشده ، و ينصحه ، و يهدئ من روعه و يطمئن نفسه فى قوله : " لا تفعل إذا أتاك . فأثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى " (40)

و رجع النبى قافلا إلى بيته ، و رجعت عليه الرؤى ، و اضطربت نفسه ، و كثرت الإغماءات ، و تعددت النوبات العصبية . ثم يعود إلى مرشده يسأله عن سبب اضطراباته هذه : أهى " أضغاث أحلام " (41) يأتى بها الشيطان ؟ أم هى " جنة " (42) فى العقل يسببها عفريت من الجن ؟ أم هى " سحر " (43) ساحر يسحره ؟ أم إلهامات شعرية ل " شاعر " ملهم (44) ؟ أم " كهانة " (45) كاهن يبتغى معرفة خزائن الله و علم الغيب ؟ أم أخيرا هى إلهامات ربانية و رؤى ألهية ووحى منزل كانت تجيئه كما كانت تجئ أنبياء الله فى العهد القديم ؟

لم تتوان خديجة عن البحث و الاستشارات لتهدئ من روع زوجها . فقد كانت تذهب به إلى القس ورقة تارة ، و إلى عداس النينوى طورا . و أمت يوما هذا الأخير تخبره عما يجرى لبعلها ، فقال لها ذات مرة : " يا خديجة ، أن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أمورا . فخذى كتابى هذا و انطلقى به إلى صاحبك . فإن كان مجنونا ، فإنه سيذهب عنه ، و إن كان من الله فلن يضره . فانطلقت بالكتاب معها " ، و رجعت إلى زوجها (46) .

(40) السيرة الحلبية (1 / 263)
(41) القرآن (21 / 5 ، 12 / 44)
(42) القرآن (7 / 184 ، 23 / 25 ، 34 / 8 ، 37 / 151)
(43) القرآن (6 / 7 ، 10 / 76 ، 11 / 7 ، 27 / 13)
(44) القرآن (36 / 69 ، 21 / 5 ، 27 / 37 ، 52 / 30)
(45) القرآن (52 / 29 ، 69 / 42 ، 6 / 50 ، 7 / 188)
(46) القرآن (السيرة الحلبية (1 / 267 ، المكية (1 / 183)

و مما يذكر أن مثل هذه الحالات من الإغماء كان يعتريه قبل الوحى و البعثة ، و كان يرقى من العين كل مرة . و روى لنا ابن أسحق عن شيوخه هذا الحديث بقوله : " أنه " اى محمد " كان يرقى م العين ، و هو بمكة ، قبل أن ينزل عليه القرآن فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك " (47) . و كانت خديجة تقول له باستمرار : " أوجه إليك من يرقيك ؟ " و يضيف ابن اسحق : " لم أقف على من كان يرقيه و لا على ما كان يرقى به " (48) . و محمد نفسه كان يتخوف من حالاته هذه ، و كان يردد مرارا : " لقد خشيت على نفسى " (49) ، و " أخشى أن أكون كاهنا " (50) ، و " أخشى أن يكون فى جنن " (51) ، و " أخشى أن يكون بى لمة " (52) ... و مع هذا ، لا نزال نحن نؤمن بتلك الطمأنينة التى أيد بها القس محمدا ، راجين أن نكون عليها فى مطلق الأحوال .

الإعلان الخامس : بعد بدء الرسالة :

ثبت النبى على نصيحة القس و اطمأن . و راح يباشر مهمته الرسولية و ينذر . و ابتدأ يعلن للناس بعض ما نزل عليه من سور القرآن بلسان عربى مبين . و لكنه لم يتمكن من حمل عبء الرسالة الملقاة على عاتقه ، فراح يضطرب من جديد . ففيما هو مرة يقرأ و ينذر و يتوعد ، أخذت بوادره ترتجف ، ووجهه يتربد ، و تنتابه الخشية . فرجع إلى بيته مذعورا و دخل على خديجة يقول لها : " زملونى زملونى " (53) ، أى لففونى بالثياب الدافئة . فسارعت خديجة و زملته حتى ذهب عنه الروع فزال عنه الكرب و ارتاحت أعصابه . و طلبت منه أن يخبرها خبر ما جرى . فأخبرها . و قالت له للحال قول العارف بالأمور و مجريات الأحداث : " كلا . أبشر . فوالله ، لا يخزيك الله أبدا . أنك لتصل الرحم ، و تصدق الحديث ، و تحمل الكل لغيرك ، و تكسب المعدوم ، و تقرى الضيف ، و تعين على نوائب الحق ... " (54)
و أرادت خديجة أن تتثبت مما تقول و أن تؤكد لزوجها حجتها . فانطلقت به كالمعتاد إلى ابن عمها ورقة تقول له : " أى عم ، اسمع من ابن أخيك : و استوضح ورقة محمدا : " يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ " فأخبره خبر ما رأى . فأسكن القس روعه مجددا ، و راح يردد عليه قوله المعتاد : " هذا الناموس الذى أنزل على موسى " . و يضيف هذه المرة : " يا ليتنى فيها جذع و أكون فى زمن الدعوة " ثم التفت ورقة إلى خديجة يقول : " نعم . لم يأت رجل بما جئت . ألا عودى " (55) و عادت خديجة ماسكة بيد زوجها و الطمأنينة فى نفسيهما . و أبلغنا القس عن تمنياتى بعدما تحقق اليسير منها .

الإعلان السادس : عند بدء الجهاد :

عن على بن أبى طالب : ((لما سمع محمد النداء : " قل أشهد آن لا إله إلا الله و آن محمدا رسول الله " . قال محمد : " لبيك " . ثم قال : قل الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)) . لما سمع محمد ذلك اضطرب و قام و أتى القس و ذكر له ما سمع . فقال ورقة : " أبشر ثم أبشر . فإنى أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم . فإنك على مثل ناموس موسى . و أنك نبى مرسل . و أنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك . و لئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك " (56) .

---

(47) السيرة الحلبية (1 / 275 _ 276)
(48) نفس المرجع (1 / 276)
(49) نفس المرجع (1 / 276)
(50) صحيح البخارى (1 / 18) ، صحيح مسلم (1 / 97)
(51) طبقات ابن سعد (1 / 195) ، الحلبية (1 / 258)
(52) السيرة الحلبية (1 / 136)
(53) ابن سعد (1 / 195) ، الطبرى (2 / 48) . أنظر فى القرآن سورتى " المزمل و المدثر "
(54) صحيح مسلم (1 / 97 _ 98) ، السيرة الحلبية (1 / 267)
(55) السيرة الحلبية (1 / 263 ، 267)
(56) نفس المرجع (1 / 269)

يبدو أن الإعلان أطلقه القس بعدما أمر محمد بالجهاد ، أى بعد مضى زمن غير يسير على بدء الرسالة ، قد يتراوح بين السنتين و الثلاث سنين ، عندما أصبح القس عاجزا ضريرا أصم . و فى هذا الإعلان اطمئنان آخر لمحمد بأنه لن يكون وحده فى جهاده ضد المنافقين من قريش فالقس إلى جانبه ، رغم كبر سنه ، يرشده ، و يعضده ، و ينصحه بألا يستعجل الأمور ، لأن المهم فى سبيل الحصول على النجاح الصبر و عدم العجلة ، و هى نصيحة ثمينة ذكره بها القرآن فيما بعد : " أصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . و لا تستعجل " (46 / 15) . و على محمد أن ينتصح ، و ألا يترك الرسالة الملقاة على عاتقه ، مهما ضاق بها صدره : " لعلك تارك بعض ما يوحى إليك و ضائق به صدرك ! " (11 / 12) .فإن الله لن يترك نبيه بغير عضد و لن ينساه أو يودعه : " ما ودعك ربك و ما قلى " (93 / 3) . و على محمد أيضا ألا ينسى ما يقرأ عليه من الكتاب : " سنقرئك فلا تنسى " (87 / 6) .

****

و هكذا صار . و ما كان صار لولا رحمة الله التى دبرت كل شئ على أحسن حال . و لئن صح ما جاء فى الأخبار أم لم يصح فإن روايات السيرة النبوية ، و تسلسل الأحداث ، و شهادة القرآن لها ، و الوساطة الطبيعية التى يستخدمها الله لإعلان كلمته و تبليغها ، يؤكد لنا وقوع محمد وقعة إلهية فى مخطط القس ورقة و تدابيره بتنفيذ من خديجة سيدة نساء قريش التى وفرت له " المال و الجاه و الشرف و الجمال و الكفاية و الحنان " .

لقد دبر القس كل شئ و نفذت خديجة كل شئ على أكمل وجه فهى التى كانت تسعى بين القس و النبى . تسمع النبى و تشجعه ، و تذهب إلى القس و تسترشده . و يكفى أن يقال عنها " أن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة " (57) .

ورقة و خديجة و أبو طالب لعبوا فى حياة محمد و رسالته دورا كبيرا لا ريب فيه . و بموتهم فقد محمد العضد و السند و المرشد و المنعة و الحنان .

بموت القس ورقة " فتر الوحى " (58) .

و بموت خديجة " تتابعت على رسول الله المصائب ، إذ كانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها " (59) . هى التى " آمنت به ، و صدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، و كانت أول من آمن بالله و برسوله ، و صدق بما جاء منه . فخفف الله بذلك عن نبيه ، لا يسمع شيئا مما يكرهه . من رد عليه و تكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها . تثبته و تخفف عليه و تصدقه و تهون عليه أمر الناس " (60) .

و بموت أبى طالب " نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ... إذ كان أبو طالب لبن أخيه عضدا و حرزا فى أمره و منعة و نصرا على قومه " (61) .

القس دبر . و الزوجة نفذت . و العم عضد . و النبى استسلم لإرادة الله . على هؤلاء قامت الدعوة الجديدة . فكان لها النجاح . و هذا أيضا كان من الله . و يعود إلى الله . و الحقيقة تقال أن الله ، إذا ما أراد اختيار أنبيائه ، يهيئ لهم الظروف المناسبة ليكفل لهم النجاح فى مهماتهم الصعبة .

---

(57) السيرة الحلبية (1 / 275)
(58) صحيح البخارى بشرح الكرمانى (1 / 38)
(59) سيرة ابن هشام (2 / 45)
(60) نفس المرجع (1 / 224)
(61) نفس المرجع (2 / 45 _ 46)

خامسا : القس النبى و النبى القس

نسأل : ماذا كان فى نية القس أن يعلن ؟ نبوة محمد أم قسوسيته ؟ لقد استترت نية القس على كتبة السيرة . و لا يعود استتارها إلى سوء نية عندهم بقدر ما يعود إلى نقل ما وصل إليهم منحولا بعد حوالى مائة و خمسين عاما من بدء الرسالة و توسعها فى معظم البلاد الأسيوية و الأفريقية . لقد بلغهم بعض ما قام به القس من دور فى نبوة محمد ، و لكنهم لم يحققوا فيما بلغهم ، و لم يدركوا بالتالى نيته ، و لم يعرفوا كيف تعلن النبوة و لا كيف تنتقل القسوسية فى النصرانية من سلف إلى خلف ، و لم يعلموا أن النبوة لا تحتاج إلى من يدافع عنها و يقضى بصحتها ... و لو علموا كل ذلك لما اضطروا إلى إثبات نبوة محمد بألف و ألف دليل ، و الدفاع عنها بألف ألف حجة . و لخوفهم من ألا يكون محمد نبيا أرجعوا الأدلة عليه إلى زمن آدم ، و قرأوا اسمه فى السماء تحت سدرة المنتهى ، و سمعوا الأحبار و الرهبان و الكهنة و السحرة و الجن و الشياطين و الحيوانات و الأصنام و الأشجار و الحجارة ... تعلن نبوته ، و رأوا اسمه فى التوراة و الإنجيل ، و استرقوا أخباره عند ملوك العجم و العرب ... كل هذا كان لأجل الدفاع عن نبوة محمد . و هل يحتاج نبى الله إلى من يبرر له نبوته و يدافع عنها ؟

و من جهة ثانية ، من أين للقس أن يعلن محمدا نبيا ، فيشرك معه خديجة و أبا طالب و أبا بكر و عليا ؟ هل القس هو الذى أطلق على محمد أسم نبى ؟ أم تبدلت الأسماء فيما بعد ، و تحرفت المعانى ، و تغيرت النوايا ، و استبدت الأحداث السياسية بالأمور الدينية ؟ لئن صح إعلان القس لنبوة محمد يكون القس مخبولا حقا ، و يكون النبى ، فيما صدق من القس ، صاحب جنة و غرور . وحده الله يختار أنبياءه ، ووحده النبى يعرف على نبوته ، و تعاليمه تعلن عنها ، و أعماله تدعم تعاليمه . و ما من نبى فى التاريخ احتاج إلى الدفاع عن نبوته كما هو الأمر مع محمد . و الحقيقة أن القرآن المكى لا يسمى محمدا نبيا ، بل " بشيرا " و " نذيرا " و " مبلغا رسالة ربه " . و هو ما يؤكد لنا أنه لا القس و لا النبى استمتعا بالنبوة ، بحسب مفهومها فى العهد القديم . فماذا يكون الأمر إذن ؟

فى ظنى أن نية القس كانت غير ذلك ، ووعى محمد كان هو الآخر ، فى بدء أمره ، غير ادعاء النبوة . و الذى بدل المقاصد و النوايا هو " مصحف عثمان " و كتبة السيرة . و كان قصد القس أن يعلن محمدا خليفته على جماعة مكة النصرانية . و أدلتنا على ذلك من سيرة القس و النبى بتمامها و كمالها . فالقس اختار محمدا و تبناه ، ثم زوجه من خديجة ، على الطريقة النصرانية ، و دربه على الصوم و الصلاة فى غار حراء ، و علمه التوراة و الإنجيل ، و ناموس موسى و عيسى ، و نقل له الإنجيل العبرانى بلسان عربى مبين . و قد وعى محمد اختياره هذا ، و عرف مهمته ، فراح ينذر الناس و يبشرهم ، و يثقفهم ، و يعلمهم ما لا يعلمون من الكتاب ، و يبين لهم الصراط المستقيم ، و يهديهم إلى " الدين القيم " ، و يعظ فيهم عن أحوال الحساب و العقاب و الجنة و النار و القيامة ، و يحرضهم على فعل الحسنات و الصدقات ، و يقرأ عليهم ما تيسر من قصص الكتاب و أخبار الأنبياء . لقد كان يعلم أن مهمته تقوم على أن يذكر الناس بتعاليم التوراة و الإنجيل : " ذكر إنما أنت مذكر " ، و كتابه هو " ذكر ، و ذكرى ، و تذكرة " و " تفصيل " و " تصديق " للكتاب العبرانى الذى كان بين يدى القس و يحضر محمد تعريبه طيلة أربع و أربعين سنة .

لقد أراد القس أن يكون محمد خليفته له على نصارى مكة ، يكمل عمله الروحى بين العرب ، و يحافظ على استمرارية النصرانية فى الحجاز ، و يعمل على جمع شمل النصارى من بنى إسرائيل ، و يوحد شيعهم و أحزابهم ، و يوحد كتبهم و عقيدتهم ... فكان له ذلك بما أوتى من تجرد و ذكاء و جرأة و إقدام . و ساعده على إتمام مهمته امرأته خديجة بما كان لها من شرف و جاه و مال ، و أعانه أبو طالب عمه الوفى ، و لبى الدعوة " الحمس من قريش ، و جاهد معه فقراء مكة و " أذلتها " ، و استضافه النجاشى ملك الحبشة بعدما قاومه " الملأ الأعلى " و " أعزة مكة " ... حتى أصبح محمد ، بعد وفاة القس " رئيس النصارى " الموحدين ، و أول المؤمنين ، أى زعيمهم الروحى الأول ، و المسؤول عنهم ، و قال " أمرت أن أكون أول المسلمين " (39 / 12) .

بعد وفاة القس ورقة ، انتقلت الزعامة الروحية إذن إلى محمد ، و أصبح محمد " أول المسلمين " و بوفاة القس خشى محمد أن يتركه الله و ينساه ، إذ " فتر الوحى " مدة من الزمن تتراوح بين السنتين و الثلاث سنين ، و عاوده بعد ذلك مع كثير من التغيير فى المواقف و التبديل فى التعليم و التشريع ، بما يناسب شخصية محمد و استقلاليته عن معلمه ، و بما يوافق الظروف و أحوال البيئة و المجتمع العربى . و أعلن القرآن، عن عودة الوحى هذه بقوله : " ما ودعك و ما قلى " (93 / 3) .

و ما يؤكد لنا خلافة محمد للقس هو أن الإسلام ، فى بدء أمره ، و كما كان فى أيام القس و تحت تأثيره ، لم يكن دينا جديدا ، و لم تكن دعوة محمد دعوة إلى دين جديد ، بل كانت تعاليم من التوراة و الإنجيل ، و تعاليم أبيونية فى الحسنات و الصدقات ، و تبشير بالجنة و النار و القيامة ، و عيد بالعقاب ، و تذكير بأحوال الساعة الأخيرة . و لم يكن فى نية محمد أن ينزل وحيا من السماء ، أو أن يدعى معرفة خزائن الله و علم الغيب ، بقدر ما كان يقصد إعلان كلمة الله الأعجمية بلسان عربى مبين ، مفصلة و ميسرة للحفظ و الذكر . فالوحى المحمدى إذن هو وحى لاحق لوحى سابق ، و كتابه العربى هو تصديق لما بين يديه من التوراة و الإنجيل ، و دعوته هى دعوة كانت " قبله " مع أهل الكتاب ، و ألهه هو " أله بنى إسرائيل . قال : " لا أله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل " (10 / 90) .

هذا هو قصد القس و منطلق الأحداث . و تلك هى مقاصد أهل السيرة . فلا نغفل عن الحقيقة و لو تنكر لها المنكرون و تجاهل المتدينون وقائع التاريخ . جل ما فى المر أن القس يريد له خليفة على كنيسة مكة النصرانية ، فكان محمد بن عبد الله يتيم قريش قسا على كنيسة مكة . و مع هذا ، يريد مؤرخو حياة محمد ، إلى اليوم ، أن يكون الأمر غير ذلك ، ضنا بالنبوة و الدين الجديد ، فأغفلوا وجود القس ، و أنكروا لقاءاته المتعددة مع محمد ، و تجاهلوا إعلاناته . فالشيخ صبحى الصالح أراد ألا يكون بين القس و النبى ألا لقاء واحد ، يقول : " فما عسى أن يكون النبى تعلم فى هذين اللقاءين (لقاء مع الراهب بحيرا و آخر مع القس ورقة) من علوم الغيب و التاريخ ؟ " (62) . و عندما يستشهد الشيخ بحديث البخارى يأخذ ما يناسبه و يتجنب ما يزعجه ، فينقل : " و لم يلبث ورقة أن توفى " ، و يترك " و فتر الوحى " (63) . و يستنتج : أن محمدا تعرف على ورقة فى آخر أيام حياته ، و رآه عجوزا ضريرا ، لا تصلح همته لأى شئ . و كذلك هو الأمر مع محمد حسين هيكل فى موسوعته " حية محمد " ، فهو يتجاهل أمر القس و دوره ، و لم يذكر من اللقاءات أو الإعلانات سوى أثنين و بطريق العرض (64) ... لماذا هذا التنكر ؟ أن كان جهلا فهو لعنة فى واقع التاريخ ، و إن كان تجاهلا فهو طعنة فى صميم الحقيقة .

بقى أن نسأل عن قصة الراهب بحيرا : لماذا يجهد مؤرخو حياة النبى فى التركيز على الراهب بحيرا ، حتى تحولت أنظار الناس إليه على حساب القس ؟ الناس ، اليوم ، يلهجون باسم الراهب بحيرا ، و لا يعرفون عن القس ورقة شيئا يذكر فما سبب ذلك ؟ و ما القصد منه ؟ إن فى الأمر تضليلا و تمويها للواقع : فالراهب بحيرا ، على مكانته العظمى فى النصرانية ، و على كونه " انتهى إليه علم النصرانية فى ذلك الزمان " ، و على مرور تجار قريش بصومعته فى بصرى ، لم يكن له ذلك الأثر الفعال ، لأن رحلات محمد إليه لم تكن كافية للدلالة على تثقيفه على يده . و مهما يكن من أمر ، فإن اللقاءات المحدودة التى حصلت بين محمد و بحيرا لا تعطى النتائج التى نستطلعها فى تعاليم القرآن ، و لا تستحق أن يعيرها الناس أهمية بالغة و يتوقفوا عندها . هذا يمكن نقضه بسهولة . و بالفعل توقف مؤرخو حياة النبى على دور الراهب فتوقفوا فى نقضه و رفضه ، كما توقفوا فى التركيز على الراهب على حساب القس .

---

(62) الشيخ صبحى الصالح ، مباحث فى علوم القرآن ، بيروت ، صفحة 45

(63) نفس المرجع .

(64) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، القاهرة ، صفحة 135 _ 137

و تركيزهم على الراهب و تحويل أنظار الناس إليه و ردهم على ما استنبطوا من أضاليل حوله أعطى أهمية لبحيرا دون ورقة . و بهذا فقد أثر الاثنين معا . و انخدع الناس فيما بين الراهب و القس . و لسهولة رفض أثر الراهب ظن الناس أن أثر القس هو أيضا يرفض بالسهولة نفسها و كان قصدنا كشف هذا الضلال المكنون . عسانا وصلنا إلى المراد .

الفصل الثالث

إنجيل القس ورقة و قرأنه

أولا : إنجيل القس ورقة

ثانيا : القرآن العربى

ثالثا : استمرارية الوحى و التنزيل

رابعا : محمد يعلم ما تعلم

أولا : إنجيل القس ورقة

نذكر بمهمة القس ورقة التى عرف بها و لم يعرف بغيرها ، و هى ، كما جاء على لسان المحدثين و فى صحيح مسلم (1) و صحيح البخارى (2) و أغانى أبى الفرج الأصفهانى (3) ، أن القس ورقة كان ينقل الإنجيل بالعبرانية إلى العربية .

ما هو الإنجيل بالعبرانية ؟ ما هى تعاليمه ؟ هل وجد فعلا فى التاريخ ؟ من يحدثنا عنه غير القس ورقة ؟ الجواب على هذه الأسئلة عند آباء الكنيسة و مؤرخيها . فهم خير شاهد على تراث الكنيسة و كتبها المقدسة . وبالفعل ، نرى عندهم الكثير من الإشارات على ما يسمى فى تاريخ الكنيسة ب " الإنجيل بحسب العبرانيين " . و علينا أن نستعرضها ، و نقابل بين إنجيل ورقة و بين تعاليمها ، و إذا صحت المقابلة نكون اكتشفنا قصة " اللوح المحفوظ " الذى نزل القرآن منه ...

ينقل أوسابيوس عن هجسيب ، و هو من أوائل القرن الثانى ، " أنه كان ينقل أشياء من الإنجيل بحسب العبرانيين ، الإنجيل الأرامى الذى هو بالحرف العبرانى " (4) . و يشهد أوسابيوس نفسه على أن " الإنجيل بحسب العبرانيين هو الأصح فى نظر العبرانيين الذين آمنوا بالمسيح " (5) . و يقول عن الأبيونيين أنهم " كانوا يستخدمون فقط الإنجيل المسمى بحسب العبرانيين ، و قلما يكترثون بغيره " . و يقول عن عقيدتهم : " أنهم كانوا يحفظون السبت و سائر العادات اليهودية و يغارون على إقامة أحكام التوراة ، و يعتبرون أن الخلاص يقوم لا على الإيمان بالمسيح وحده ، بل على إقامة شريعة موسى أيضا . (6) . و يقول فى مكان آخر : " أن المسيح ذكر الشقاق الذى ستتعرض له النفوس فى العائلات ، كما نجده فى " الإنجيل بحسب العبرانيين " (7) .

أما أوريجينوس (+ 252) فيذكر هذا الإنجيل فى جملة كتب . يقول : " من يقرأ الإنجيل بحسب العبرانيين يجد فيه هذه الآية : " أن أمى الروح القدس يفنى بشعرة من رأسى و أصعدنى فى جبل ثبور العظيم " (8) . و يقول أيضا : " أن غاب الغنى ، بحسب الإنجيل العبرانى ، حك رأسه ، و لم يرض بعرض المسيح و قال له يسوع : كيف تقول أننى أتممت الناموس و الأنبياء ، و أنت ترى أخوتك أبناء إبراهيم يموتون جوعا و تخنقهم المذلة ، و بيتك مملوء خيرات ! ؟ " (9) .

و قرأ أكليمضوص الإسكندرى (+ 216) فى هذا الإنجيل قولا منسوبا إلى المسيح فقال : " كما هو مكتوب فى الإنجيل بحسب العبرانيين : من يعجب و من يملك يستريح " (10) .

أما أبيفان (+ 403) فيستفيض فى الكلام على الأبيونيين و إنجيلهم العبرانى عن الأبيونيين : " أنهم يأخذون بإنجيل متى ، و يعتمدون عليه وحده دون سواه ، لأنه الإنجيل بحسب العبرانيين . و إنجيل متى هذا ، الذى بحوزتهم ، ليس كامل بل هو محرف و ناقص " (11) . و كلام أبيفان هذا ترديد لكلام القديس أريناوس أسقف ليون (+ 208) الذى يقول : " أن الأبيونيين يستخدمون الإنجيل متى وحده ، و لكنهم لا يعتقدون الاعتقاد الصحيح فى الرب " (12) .

---

(1) صحيح مسلم (1 / 78 _ 79)
(2) صحيح البخارى (1 / 38 _ 39)
(3) الأغانى للأصفهانى (1 / 54)
Eusebe , Histoire Ecclesiastique , Iv , 22 (4)
Eusebe , Histoire Ecclesiastique , I I I , 25 (5)
Eusebe , H . E ., I I I , 24 (6)
Eusebe , Theophanie , I V , 12 .... (7)
Origene , Commentaire sur saint Matthieu , X V , 14(8)
Origene , Commentaire sur saint Jean , I I , 12 (9)
Clement d Alexandrie , Stromates , I I , 9 . 45 .... (10)
Epiphane , PanRION , x x x , 3 .... (11)
Saint Irenee , Contre Les Heresies , I , 26 , 2 ...... (12)

و يذكر القديس جيروم (+ 420) هذا الإنجيل فى جملة كتب فى تفسيره لأشعياء (13) ، و تفسيره لحزقيال (14) ، و تفسيره لأفسس (15) ، و تفسيره لمتى (16) ، و فى حواره مع البلاجيين حيث يقول : " فى الإنجيل بحسب العبرانيين الذى يستخدمه النصارى أيضا ، و الموضوع فى الآرامية ... و هو قريب المشابهة بإنجيل متى ، محفوظ فى مكتبة قيصرية " (17) ، و فى كتابه مشاهير الرجال يقول : " أن الإنجيل المسمى بحسب العبرانيين ، الذى نقلته حديثا إلى اليونانية و اللاتينية ، و الذى أستخدمه أوريجينوس ، يقول : أن يعقوب حلف بألا يأكل خبزا منذ الساعة التى شرب فيها كأس الرب إلى الوقت الذى رآه يقوم من بين الأموات . و قال له الرب : " خذ المائدة و الخبز " ، و أضاف : " كل " خبزك ، لأن ابن الإنسان قام بين الأموات " (18) .

و غير هذه الشهادات كثير تجدها فى مقالة الأب " لأغرانج " فى " المجلة الكتابية " (19) ، و هو يحقق فى أصل " الإنجيل بحسب العبرانيين " ، و فى تعاليمه و صحة نسبته إلى الأبيونين . و الجدير بالذكر أنه لم يبق لنا من نصوص هذا الإنجيل ألا الشئ القليل ، فى بعض كتابات الآباء و المؤرخين .

و يبدو أن هذا الإنجيل كان واسع الانتشار ، بحسب شهادات الآباء الذين نقلنا عنهم . لقد كان بين يدى أغناطيوس الأنطاكى فى أنطاكيا ، و أوريجيون و أكليمنصوس الإسكندرى فى الإسكندرية ، و جيروم فى حلب ، و أيريناوس فى آسيا . و فى مكة أيضا . و يبدو أيضا أنه ترجم إلى لغات متعددة : وضع فى الأصل باللغة الآرامية ، ثم نقل إلى اليونانية ، ثم إلى اللاتينية ، و ربما إلى العربية . و جال فى عصور متتالية ، منذ أوائل القرن الثانى حتى أواخر القرن الخامس ، و ربما إلى يومنا هذا فى ترجمته العربية . و كثر الكلام عليه عند معظم آباء الكنيسة . و اعتمد عليه الأبيونيين ، فتارة ما كان يسمى " بإنجيل النصارى " ، و طورا " بإنجيل الأبيونيين " و أخرى " ب"إنجيل الرسل الأثنى عشر " و فى جميع الأحوال أنه " تحريف " واضح لإنجيل متى الآرامى ، أصل كل الأناجيل بعده .

و من الجائز القول بأن وجود الأبيونيين فى مكة و الحجاز يفرض حتما وجود " الإنجيل بحسب العبرانيين " . و ما يشير إلى ذلك اعتماد القرآن على تعاليمه فيما يخص المسيح و أمه و الروح القدس و الحسنات و الصدقات و أحوال المعاد الأخير ... فهى نفسها فى القرآن كما فى الإنجيل . و هى نفسها عند " الحمس " من قريش كما عند " الأبيونيين " من النصارى (20) .

أما النقل الذى كان معتمدا فى ذلك الحين ، و الذى كان يقوم به القس ورقة فى تعريبه للإنجيل فلا يعنى نقلا حرفيا و دقيقا كما هو اليوم ، بل كان فى الحقيقة ، كما يقول القرآن " تفصيلا : و " تيسيرا " و " تذكيرا " (21) ... و هذه الطريقة كانت متبعة فى القديم و فى الأوساط النصرانية و الكتب المقدسة نفسها . و للدلالة على ذلك " يكفى أن نقابل بين متى(4 / 15) و أشعياء (8 / 23) _(9 / 1) ، و متى (12 / 17) و أشعياء (42 / 1) _ (4) " (22) . و هذه الطريقة فى النقل هى أقرب ما تكون إلى التفسير اللاهوتى و الدفاع عن الدين منها إلى النقل بالمعنى الصحيح " (23) . أنها بلا ريب ، طريقة النقلة الأقدمين كما هى طريقة القس ورقة فى نقله الإنجيل بحسب العبرانيين إلى العربية . " و لقد كان هناك مدرستان للنقل ، أو نوعان من المدارس التفسيرية : مدرسة حرفية Midrachim darchani تتبع آيات التوراة آية فآية ، و المدرسة التفصيلية Midrachim parchani تتبع المعنى الموجود فى مقاطع الكتاب"(24)

بقى علينا أن نعرف شيئا عن الترجمة العربية نفسها. لكن هذا رهن بفرصة يوفرها لنا التاريخ ، فيتاح للمنقبين فى آثار مكة و تحت رمالها اكتشاف تلك الترجمة الثمينة.

و ما دام هذا مستحيلا ، يبقى لنا تحسر عليها و على صاحبها الى الأبد .ومع هذا يفيدنا النظر فى الأثر الذىخلفة